القسم الثالث

البارزانيون

تتمركز عشيرة بارزان في اقصى الشمال من العراق، في منطقة جبلية وعرة، تتاخم الحدود الإيرانية والتركية.

ولأن البارزانيين عاشوا في تلك المنطقة الصعبة بعيدين عن مراكز المدن، تجدهم اقوياء سليمي البنية، ولازالت سلطة الاب هي السائدة عندهم، وبعيدون كل البعد عن مشاكل المدنية وتعقيداتها، فلم يتأثروا بعد بالفساد الخلقي الذي اصاب المدن، واعتقد انهم مسلمون ايماناً لا اعتياداً. ويعد رئيس العشيرة في الوقت نفسه الإمام المذهبي لهم وهذه الصفة تنتقل بالوراثة. ويعتقد البارزانيون بوجود رجل عارف كان اسمه (الشيخ أحمد) وكان حامياً للعشيرة ومدافعاً عنها، ويعتقدون بأن رؤساء عشيرتهم الحاليون هم احفاد (الشيخ أحمد) هذا.

دأب البارزانيون على مقاومة كل الحكومات التي سعت لفرض سلطتها على منطقتهم، وخاضوا الحروب ضدها، ولم يعيشوا في سلام ابداً، فمرة دخلوا الحرب ضد الأتراك ومرة ضد العرب وأخرى ضد الإيرانيين.

في ١٩٣٦، عندما اعلن كمال اتاتورك انه حل القضية الكُردية «بتقتيل الكُرد في دياربكر طبعاً»، أرسل الشيخ عبدالسلام الذي كان رئيساً للعشيرة، رجال عشيرته الى تركيا لنجدة الكُرد هناك، فتقدموا حتى دياربكر ولكنهم هزموا هناك. ما اسفر عن إلقاء القبض على الشيخ عبدالسلام وإعدامه، وعاد البارزانيون الى منطقة بارزان[٤]. وخلف الشيخ عبدالسلام اخوه الشيخ أحمد، الذي كان لايزال رئيساً للعشيرة عندما كنت معهم في سنة ١٩٤٦.

لم يستسلم البارزانيون في اي وقت للحكومات العراقية. ولكن بعد الحرب العالمية الثانية وهزيمتهم في تركيا، تمكنت الحكومة العراقية من احتلال منطقة

(٤) هذه المعلومة خاطئة لأن الشيخ عبدالسلام «الثاني» الاخ الاكبر للبارزاني الخالد، اعدم من قبل العثمانيين في الموصل عام ١٩١٤ او ١٩٥١، لانه قاد حركة عام ١٩٠٧ ضد المحتلين العثمانيين في سبيل حقوق الشعب الكُردي. اما توجه قوة البارزانيين المحاربة لمساعدة الكُرد المنتفضين في تركيا، فقد كان خلال الفترة ١٩١٧-١٩١٩، حيث وصلت تلك القوة بقيادة البارزاني الخالد لنجدة الشيخ عبد القادر النهري والشيخ سعيد پيران، وفي عام ١٩٣٢ عندما اخمدت انتفاضة بارزان الاولى لجأ البارزانيون الى تركيا، ومكثوا فيها عاماً، انظر: (مسعود البارزاني، البارزاني والحركة التحررية الكُردية - انتفاضة بارزان الاولى ١٩٣١-١٩٣٢).

بارزان لسنوات[٥] واعتقلت كلاً من الشيخ أحمد وأخويه ملا مصطفى والشيخ محمد صديق، والشيخ سليمان ابن الشيخ عبدالسلام، وسجنتهم في سجون البصرة وكركوك ثم وضعتهم تحت الإقامة الجبرية. وكانت سياسة الانگليز في العراق، تسعى الى وضع القوى الاقطاعية الى جانب الحكومة العراقية تحت تصرف الانگليز، للافادة من تلك القوى العشائرية في حال حدوث طارىء كإنتفاضة «رشيد عالي الگيلاني» لمواجهته ومساندة الحكومة المركزية. ومن تلك العشائر، العشيرة البارزانية حيث ساعد الانگليز شيوخها للنجاة من السجون والعودة الى منطقة بارزان، فقد خططوا ملا مصطفى البارزاني من كركوك ليلاً، وزودوه بالسلاح والعتاد[٦].

(٥) الحقيقة هي انه بعد اخماد انتفاضة بارزان الاولى (١٩٣١-١٩٣٢) ولجوء البارزانيين الى تركيا، بسط الانگليز والحكومة العراقية سلطتهما على منطقة بارزان حتى سنة ١٩٤٣، حيث كان البارزاني الخالد، والمرحوم الشيخ احمد البارزاني معظم تلك الفترة في السجن، او خاضعين للاقامة الجبرية.

(٦) إن المؤلف في مقدمته القصيرة التي قدم بها لمؤلفه هذا يعترف بانه اعتمد على ذاكرته فقط في سرد هذه المذكرات وانه لم يعد الى أية مصادر اخرى، لذا نجده يقع في مثل هذه الاخطاء. فالحقيقة التي لاشك فيها هي ان البارزاني وبمعية اثنين من رفاقه هما مصطفى عبدالله وسليمان سوره قد فروا من السليمانية الى ايران، ومن ثم الى بارزان - وليس من كركوك كما زعم المؤلف - وبدأوا بالثورة على الحكومة العراقية والجيش الانگليزي المحتل. كما أن جميع المصادر تتفق على أن هروب البارزاني من السليمانية قد تم بمعاونة الثوريين الكُرد وخاصة الشيخ لطيف الحفيد نجل الشيخ محمود الحفيد ومناضلي حزب هيوا، وبعد هروبه من السليمانية، اشعل ثورة ١٩٤٣-١٩٤٥ ضد الحكومة العراقية والجيش الانگليزي، وقد لجأ البارزاني وكل من معه من الپيشمركه مع عائلاتهم الى ايران لتقديم العون لإخوانهم المنتفضين في ايران، ومما يذكر ان الطائرات العراقية والبريطانية لم تتوقف عن قصف الاطفال والنساء حتى عبور البارزانيين الحدود وألحقت بهم خسائر فادحة.

وللمزيد من المعلومات يمكن للقاريء الكريم الاطلاع على المصادر التالية:

١- مسعود البارزاني: البارزاني والحركة التحررية الكُردية- ثورة بارزان عام ١٩٤٣-١٩٤٥.

٢- نجف قولي پسيان: من مهاباد الدامية الى ضفاف آراس، ترجمه الى الكُردية شوكت شيخ يزدين، وقد صدرت الطبعة الفارسية الأولى منه في ١٩٤٧.

٣- د. اسماعيل ئةردةلان: بارزان واسرارها، ترجمه الى الكُردية معروف قَرَداغي، وقد نشر عام ١٩٥٩، وفي هامش الصفحة (٢٢) يقول المترجم: «يجب أن يشكر الشيخ لطيف ابن الشيخ محمود والعديد من الكُرد الشرفاء على انقاذهم ملا مصطفى».

وبعد عودته الى بارزان وجمع رجال العشيرة وتسليحهم، بدأ القتال مع الحكومة العراقية واجبرها على اطلاق سراح شيوخ بارزان من السجون والسماح لهم بالعودة الى بارزان. تتألف عشيرة بارزان من حوالي الف وخمسمائة من المقاتلين الاشداء وملا مصطفى مع عدم تلقيه أي نوع من التعليم التقليدي فقد كان حكيماً يجيد اللغات الفارسية والعربية والكُردية ويتحدث بالتركية. وقد تعلم الفارسية من ديوان «گُلستان» لذا يصوغ كلامه بنفس أسلوب الديوان المذكور.

اتذكر عندما خرجنا من عند (مير حسين خان) وزير دفاع القاضي محمد، في مهاباد، رأيت ملا مصطفى واقفاً بين اصحابه كأنه رسول يوزع عليهم العتاد ويحدّثهم. وعندما شاهدنا اتجه نحونا بلهفة، ولما لاحظ ترددنا وارتباكنا قال:

– انا لست پيشَوَري ولا پَناهيان لأكون رئيساً للأركان في زمن السلم وعند اندلاع القتال اظهر فجأة في (باكو)، ما دمت احمل هذه البندقية – وكان يحمل بندقية – فانني املك نفسي ولن اكون خادماً لأي قوة او حكومة، لا الانگليز، ولا الامريكان، ولا الروس.

وبعد أن تحدثنا مع بعضنا اكثر، احسست بانه متنوّر الفكر سياسياً وكان يقول بنفس اللهجة المعهودة:

"هذه هي حال الدنيا، الروس يساعدوننا. لانهم بحاجة الينا في المنطقة، لذلك نستطيع نحن أن نفيد من وجودهم هنا من اجل استقلال كُردستان. انني لست شيوعياً ولا اقطاعياً انني ديمقراطي."

كان للديمقراطية لديه معنى خاصاً، كان يأكل مع ابناء عشيرته على مائدة واحدة، ويذهب معهم الى القتال، ويبقى معهم في خنادق القتال، لذلك كان البارزانيون يحبونه، فبمجرد امتطائه صهوة جواده كان خمسمائة رجل مسلح يهبون ليتبعوه دون سؤال او استفسار، وعندما كان يقرر خوض معركة كان متأكداً من انه سينتصر، فقد شاهدته بأم عيني واقفاً على جبل يأمر رجاله:

– ليتوجه خمسة الى تلك القمة، عمر اذهب مع خمسة رجال الى تلك القمة، وانت يا موسى توجه مع اربعة رجال الى القمة الاخرى.

كانت اوامره تنفذ فوراً. وكان عالماً بطبيعة الارض وله القدرة على استغلال

تضاريس المنطقة ويصدر أوامره بموجب ذلك، كان يعمل بذكاء ودهاء، فنحن ورغم كوننا مختصين وفنيين، فاننا وبعد التدقيق والبحث في خريطة اية منطقة كان من الممكن أن يكون قرارنا مشابهاً لقراره. فكما قلت فانه كان على معرفة جيدة بالارض، وكان يعرف كيف يستفيد من تضاريسها وكان يعرف معنويات عدوه ومعنويات رجاله، في الحقيقة أن سر انتصار ملا مصطفى في معاركه كان يكمن الى حد ما في شجاعة رجال عشيرته، ولكن بالدرجة الاولى كان يكمن في دهاء ملا مصطفى الذي كان من مقومات النصر. كان يعرف ميزان قوته ورجاله ففي الموقع الذي كان يعرف انه لا يتمكن من السيطرة عليه كان ينسحب باطمئنان، ولم يكن أحد يستطيع أن يقول أن انسحابه كان لجبنه، لانه كان يعرف جيداً متى يهاجم ومتى ينسحب.

مع انتهاء الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥، ولان الحكومة العراقية لم تكن قد استقرت بعد، قررت العشيرة البارزانية وبالاسلحة المتوفرة لديها أن تفصل كردستان عن العراق وتشكل حكومة كردستان المستقلة، وكان سكان كُردستان في المدن والقرى تخفق قلوبهم بحب كُردستان. ربما كان لتحرير كُردستان لديهم معنى خاصاً، لكنهم كانوا يعشقون ذلك. ففي احد الايام سألت احد الاغوات : ما معنى تحرر واستقلال كُردستان؟ فاجابني قائلاً:

– الحرية تعني أن اكون حراً في اختيار المكان الذي ارعى فيه غنمي، وان استطيع بيع منتجاتي لمن أشاء وبالسعر الذي أريد. وان لاتتدخل الحكومة المركزية في شؤوني.

من الطبيعي ان يكون لدى الجماهير تصورٌ آخر حول الاستقلال. هكذا، ورغم أن كلمة الاستقلال ليس لها دلالة خاصة لديهم، فإنها ترّن في آذان الكُرد، منذ الطفولة، وكل املهم هو الحصول على السلاح ليحاربوا به في يوم من الايام من أجل استقلال كردستان. مما لاشك فيه ان ملا مصطفى والشيخ أحمد كان لديهما فهم اكثر دقة للاستقلال، لانهما كانا على علم بتاريخ الكُرد وكردستان، ولهما إلمام بعددهم وحدودهم في البلدان والمدن المختلفة. تزامنت تلك الفترة مع تشكيل الحكومة الشعبية في أذربيجان وكُردستان. كان ملا مصطفى يقول:

– بدعم السوفييت فقط يمكن أن توجد كُردستان الموحدة، لانهم لن ينتفعوا

أبداً من تقسيم كُردستان، بل العكس، فان مصلحتهم تكمن في أن تشكل حكومة مستقلة لكُرد إيران والعراق وتركيا.

وكان واثقاً أنه متى ما اقتطعت قطعة أرض من الانكليز والامريكان فأنهما سيضعفان، وكان يعتبر كل تلك الدول مستعمرات تابعة للأنكليز وامريكا ويقول:

- في الوقت الذي كنت اناضل في العراق من أجل إقامة حكومة كُردية، حاولت الاتصال بالروس الذين كانوا في (أورميه) وقد اتصلت بهم، كان الروس متحفظين يصعب كسب ثقتهم، ومن اجل كسب ثقتهم كان يتوجب القيام بأعمال لم يكن بمقدوري القيام بها، لانني لست عبداً ولا خادماً، أنا خادم العشيرة بارزان وابناء قومي فقط.

رغم هذا فقد استطاع ان يكسب ثقة السوفييت. كانت العشيرة البارزانية قد اندحرت في حرب الحكومة العراقية لان جزءاً من الجيش الانكليزي بمساعدة الطيران، كان يمطر منطقة بارزان بالنيران ويحرق المزارع والبساتين، لذلك اضطر البارزانيون للجوء الى حكومة كردستان الشعبية في إيران.

في آب ١٩٤٦ وصل ملا مصطفى (كان حينها الجنرال البارزاني) مع ستين رجلاً من البارزانيين الى معسكر تبريز، وكان قد جلب أولئك معه ليلتحقوا بدورة المدفعية هناك، وأرسل الشباب الذين كانوا يجيدون القراءة والكتابة الى كلية الضباط، أما الباقون فقد أرسلوا الى الاعدادية العسكرية في تبريز، كان الرائد نوري وهو من ضباط الجيش العراقي قائد أولئك الرجال البارزانيين - هناك تعرفت على ملا مصطفى البارزاني - لم تمر ثلاثة أشهر من انخراط هؤلاء في الدراسة حتى اندلع القتال بين الجيش الإيراني والفرقة الديمقراطية في أذربيجان وكُردستان، فعاد ملا مصطفى الى تبريز وجمع رجاله وتوجه بهم الى جبهة (سَرا) قرب سقز.

في الليلة التي وصلنا فيها الى مهاباد، شاهدنا ملا مصطفى وحسب تعبير احد اصدقائنا كان كالرسول إجتمع أصحابه حوله يوزع عليهم الاعتدة. اقترح علينا ان ننضم اليهم، وطمأننا باننا سنكون معهم بخير. وقد رأينا أن نرافقهم، في الليل توجهنا نحو نغده وقبل انطلاقنا أشرفنا على بعض الجنود ورجال البارزانيين لحمل المدافع، وقد لحق بنا هؤلاء في اليوم التالي. كانت

أشنويه ماتزال منطقة حرة، فقرر البارزانيون التوجه اليها وكان الشيخ أحمد قد سبقهم الى هناك. هذه المدينة كانت قريبة من المثلث الحدودي بين إيران والعراق وتركيا، ولم يكن الجيش الإيراني قد وصل اليها وكان البارزانيون يرون انه يجب ان يجعلوها ملجأ لهم للاحتماء من برد الشتاء قبل وصول الجيش اليها.

انتهج الجيش سياسة خاصة في التعامل مع البارزانيين، إذ لم يكن أمامه غير ذلك. في تلك الظروف لم يكن بإمكان الجيش قمع البارزانيين بسهولة وكانت ستلحق به أضرار كبيرة اذا ما واجههم. وبصدد النصر، فإن البارزانيين لم يكونوا إيرانيين وكان لزاماً أن يقبلهم كلاجئين ويوفر لهم المأوى أو أن يعيدهم الى العراق وكان هذا الإجراء الأخير سيثير مشكلة كبيرة. وربما كان الحل الوحيد هو إبادتهم عن بكرة أبيهم أو حصارهم وإجبارهم على مغادرة الأراضي الإيرانية الى العراق.

اتبع الجيش أكثر السياسات حكمة في مواجهة البارزانيين، إذ كان قد دخل أذربيجان حديثاً ويواجه مشاكل كثيرة. وكان عليه ان يعالج مشكلة بقايا فرقة كردستان الديمقراطية[٧]، فكان مضطراً ان يطهر الجبهات والمواقع الخلفية أولاً ثم يقرر ما يفعله مع البارزانيين. وفعلاً فعلوا ذلك، وبدأ الجيش بالتفاوض مع البارزانيين، وكنا نحن قد تمركزنا في نَغَده (موطن عشيرة قَرَپاپاغ) حديثاً، وهي تقع على الطريق بين مهاباد وأشنويه. وحضر العقيد غفاري ممثل الى نَغَده ودعا ملا مصطفى للذهاب الى طهران للتفاوض. بعد استشارة الشيخ أحمد قبل ملا مصطفى الدعوة، وتوجه الى طهران برفقة عدد من الضباط العراقيين، وعندما وصل الى مهاباد كان الجيش قد احتلها وكان العميد همايوني قائد الوحدة الموجهة الى كُردستان يشرف على استعراض للجيش وكان القاضي محمد والبارزاني يقفان الى جانبه ويرقبان الاستعراض العسكري. وقد حدثني ملا مصطفى عن زيارته الى طهران فيما بعد.

نقل البارزاني ورفاقه على جناح السرعة الى طهران، وقد استمرت مفاوضاته مع المسؤولين الحكوميين عشرين يوماً، وكان هدف الحكومة تجريدهم

(٧) قد يكون المقصود الحزب الديمقراطي الكُردستاني الايراني.

من اسلحتهم بالطرق السلمية وان توفر لهم السكن في احدى مناطق إيران وعلى الارجح في همدان كلاجئين، وكانت الحكومة مستعدة لقبول الذين يواجهون احكاماً سياسية في العراق كلاجئين سياسيين، وان توفر لرجال العشيرة الاراضي الزراعية ليشتغلوا بالزراعة.

كان سلوك ملا مصطفى يظهر انه ليس في حرب مع الإيرانيين، وانه لايملك هناك أرضاً ليدافع عنها، وليست له عداوة مع احد حتى يرفع بوجهه السلاح. ويرى أن هذه الارض إيرانية ولابد أن يأتي اليوم الذي يتمكن فيه الجيش الإيراني من السيطرة عليها واجلائنا منها. ونحن لانريد أن نصبح عبيداً لارض ليست ملكنا. وهناك حل وحيد أمامنا وهو: أن نُمْهَل حتى تذوب الثلوج وينتهي فصل الشتاء فنعيد الاطفال والنساء والشيوخ الى العراق، ونلجأ نحن الى الاتحاد السوفييتي الى أن نتمكن من العودة الى العراق لمواصلة المسيرة من اجل تحقيق اهدافنا. وكان في نفس الوقت يقول: «الاتحاد السوفييتي ليس مكاننا». كان يصف السوفييت بالبخلاء وكانت عنده تعني: الحريصين الكفوئين والنشطين وشيء من هذا القبيل. وكان يقول: «هناك كل من يعمل يأكل، تلك البلاد لاتنفع الشيوخ الذين كانوا يعيشون على جهد الآخرين، فلايمكن أن تكون هذه البلاد موطناً مناسباً لهم. فالمكان المناسب الوحيد لنا هو المكان الذي نستطيع فيه الاحتفاظ بأسلحتنا الى أن ياتي اليوم الذي نستخدم فيه هذه الاسلحة لخدمة حكومة كُردستان. من الضروري أن نتوجه الى ذلك المكان».

وبالنسبة لزيارته الى طهران حدثنا ملا مصطفى قائلاً: «اخذونا الى مقر الفيلق الثاني التابع للقصر (البلاط) واستضافونا هناك، وفي تلك الفترة التقيت (قوام السلطنة) و (رَزم ئارام). كان رَزم ئارام رجلاً حكيماً اما قوام السلطنة فقد كان انانياً ومحباً للكرسي - كما تحدثت مع ملككم». كما استطرد يتحدث بأسلوبه الخاصة قائلاً: «في احد الايام ألبسوني (قلنسوة) ولفوا حول رقبتي (لفاحة) واشتروا لي معطفاً جميلاً - كان الفيلق قد دفع هذه المصاريف - لكن العقيد غفاري النذل - كان يريد أن يختلس تلك النقود، ويلبسني ملابسه القديمة. بالنسبة لي لم يكن هناك فرق بين معطف قديم وآخر جديد، ولكني اردته أن يفهم أننا حتى لو كنا جبليين فاننا نفهم كل

شيء، فقلت له "سيادة العقيد، من المخجل حقاً لدولة كإيران صاحبة ذلك التأريخ العريق أن تلبس ضيوفها ملابس قديمة". فاخذني من فوره الى احدى المحال، وقال "خذ كل ما تريد، حتى هذا المعطف الذي البسه اشتريته من هذا المحل". ثم اخذوني الى قصر الملك (الشاه). في صالة الاستقبال كان الجميع يتخاطبون بالاشارات ويكثرون من قول: صه... صه... وارشدوني الى الباب، فقلت: وكأنهم بلا ألسنة، لماذا انتم خرس هكذا وتتهامسون، لم هذه الاشارات افصحوا عما تريدون أن تقولوا. كانوا يردون عليّ بالاشارات، كنت اعرف ما يعنون ولكني كنت اريدهم أن يتكلموا، لان الملك ايضاً إنسان، بعدها فتحوا الباب رأيت الملك جالساً، دخلت وسلمت عليه، فاشار عليّ بالجلوس الى كرسيّ فجلست».

واستمر ملا مصطفى قائلاً: «تحدثت الى ملككم مدة ساعتين، كان سعيداً للقائه بي. بعد مرور ساعتين اردت الاستئذان. فطلب مني الجلوس، فقلت له: لن ابرح مكاني هذه المرة حتى تطلبوا مني ذلك، فجلست مرة أخرى. حدثني عن اسكاننا في احدى المناطق الإيرانية فاجبته "انتم كرماء جداً، وأنا مرتاح لجميع مقترحاتكم، ولكن يجب أن يقبل الشيخ احمد بتلك الاقتراحات، لانه رئيس العشيرة". وبالنسبة لكم انتم الضباط طلب مني الملك تسليمكم، فاجبته "نحن لم نقبض على هؤلاء كي نسلمهم، فهم ستة ضباط شباب - من مجموع الضباط العشرة كان ستة منا فقط ضباطاً رسميين - ومجموع اعمارهم لايبلغ المائة سنة. وبدلاً من هؤلاء الشبان الستة انا مستعد لتسليمكم ثمانية عشر شاباً. فأنا والشيخ احمد واخوتي الآخرين لنا ثمانية عشر ولداً، وكلهم شباب اكفاء، فبدلاً من هؤلاء الستة اسلمكم اولادنا، ولكن انتم تريدون منا أن نهدر ما تركه لنا شيوخ بارزان من مفاخر، لنستحق لعنة الاجيال القادمة من ابناء بارزان وان تلحقوا بنا العار.»

كانوا قد اقترحوا عليه في طهران أن يستوطن في منطقة قرب همدان، فقبل ذلك الاقتراح. وفي حال قبول الشيخ أحمد بهذا القرار، كان من المقرر أن تبدأ عملية الترحيل هذه بعد انقشاع البرد، كما كان من المقرر منح كمية من الحنطة لكل عائلة بارزانية بعد أن تلقي باسلحتها ثم تنقل الى المكان المحدد.

ولتوضيح سبب قبوله بهذا المقترح كان يقول:

- اذا لم اقبل بالمقترح فانهم لم يكونوا يطلقون سراحي.

في طهران، اخذوا ملا مصطفى في جولة واطلعوه على مصانع السلاح ومخازن العتاد، ومقر الحكومة، وسلاح الجو، والكلية العسكرية وقد حدثنا عن جولته هذه قائلاً:

- لما اخذوني فيه الى الكلية العسكرية، قلت لرَزم ئارام: ايها الجنرال لقد خفت من كل هذه الاسلحة، وهذا الجيش الجرار، لكن هل يخاف البارزانيون؟ انهم لايخافون كثرة السلاح هذه، فكل واحد منهم يملك بندقية واحدة فقط، وهم يعيشون في الجبال مكتفين بالخبز فقط.

كما كان يقول: كان يريد أن يريني تلك الاسلحة الكثيرة، لذلك اجبته بهذا الجواب.

عاد ملا مصطفى البارزاني من طهران في النصف الأول من كانون الثاني - كانت علاقته معنا نحن مجموعة الضباط - جيدة نوعاً ما لانه كان يشعر باننا نفهمه اكثر من غيرنا.

لم تكن قيادة الشيخ احمد وبقية شيوخ بارزان، قيادة دكتاتورية متزمتة. فمن الناحية المذهبية كانوا يعتبرون الشيخ احمد المرجع والوارث لشيوخ بارزان. كان شيخ بارزان الملهم لعقيدة ابناء العشيرة المذهبية.

كان ملا مصطفى يقول:

- ان العودة الى بارزان تتطلب منا إلقاء السلاح، ونحن اذا فقدنا اسلحتنا نصبح عاجزين وضعفاء بحيث يقرر الآخرون مصيرنا.

كان الظهير الوحيد لقرار البارزاني: طالما كان الرجال... يملكون اسلحتهم، فهم اصحاب القرار، اما عندما يضعونها فان الآخرين سيحددون مصيرهم ويصدرون بحقهم القرارات وعليهم ان يخضعوا لها مهما كانت قاسية. هناك من ابناء عشيرة بارزان الكثيرون ممن لايريدون أن يفقدوا اسلحتهم، خاصة وان (١٢٠) منهم كانوا يواجهون احكاماً بالاعدام.

كان البارزاني يعتبر الاتحاد السوفييتي الملاذ الآمن الوحيد للبقاء فيه بصورة مؤقتة حتى تسنح الفرصة للعودة الى العراق لتشكيل حكومة كُردستان. وكان يقول:

- انا لست شيوعياً، ولا احب الشيوعية، انا ديمقراطي واحب أن اعيش مع

شعبي بسلام في ظل المساواة، واذا ما سنحت لي الفرصة سارفع راية كُردستان في اية نقطة من كُردستان، سواء كانت تلك النقطة في العراق او إيران او تركيا، فلا فرق بينها.

ذكرت سابقاً ان ملا مصطفى عاد من طهران في أوائل كانون الثاني، وسارت علاقة البارزانيين لمدة شهر من عودة البارزاني من طهران مع السطات الحكومية بشكل حسن، وقد ارسلت السلطات سيارة محملة قمحاً للبارزانيين لكن ملا مصطفى لم يرضخ لهم متذرعاً بالبرد والتشاور مع شيوخ بارزاني حول تسليم الاسلحة والعائلات لنقلهم الى همدان. وبعد شهر يئس الجيش من تسليم البارزانيين انفسهم، فبدأ بتنظيم صفوفه وتوزيع قواته حول منطقة البارزانيين والتهيئة لضربهم. وبالمقابل بدأ البارزانيون باخذ التدابير اللازمة. للمبادرة والدفاع، وفي تلك الفترة كان البارزانيون يسيطرون على مناطق (نغده وأشنويه ودشتبيل ومَرگوَر). قبل أن اتحدث عن المعارك واستعدادات الطرفين، سأتحدث عن وضعنا في تلك الفترة:

بعد إلتحاقنا بهم في مهاباد كنت مع رئيس دانا نشرف على مجموعة من الجنود والرجال البارزانيين، وكنا نشرف معاً على عملية نقل المدافع، ثم توجهنا الى نَغَده. كان هناك ستة ضباط آخرين دمر فوجهم في بوكان - وصلوا الى مهاباد وبعد الاتصال بالقاضي محمد قرروا التوجه الى أورميه أملاً في الوصول الى الاتحاد السوفييتي، لكنهم عند اقترابهم من أورميه علموا بسقوطها بيد اعداء الفرقة لذا غيروا وجهتهم الى نَغَده، بلغ هؤلاء الضباط نَغَده في الساعة الثامنة ونزلوا عند مقهى. في ذلك الوقت كانت قوة البارزانيين قد بلغت المدينة وأعلنت حكومة عسكرية من قبل الشيخ محمد صديق - احد اخوة الشيخ احمد - وكان المنادي يجوب المدينة منادياً:

نداء، نداء، من الشيخ محمد صديق البارزاني، التجوال ممنوع بعد الساعة التاسعة.

كان اصدقاؤنا بعد تناولهم طعام العشاء قد باتوا في نفس المقهى بسبب قلة خبرتهم وتجاربهم، لانهم لم يكونوا يعلمون انه توجد في نَغَده سلطة ثنائية: البارزانيون - القَرَپاپاغ.

والقَرَپاپاغ عشيرة تركمانية تقطن منطقة تشبه الجزيرة في كُردستان تقع بين

أورميه ومهاباد، وتعرف هذه المنطقة باسم (سولدوز) ومركزها نغده، وكان رئيس العشيرة في ذلك الوقت يدعى (قوليخان برجالو) الذي منح رتبة عقيد في فرقة أذربيجان الديمقراطية، وكان قد جهز ألف فارس لقتال جيش الحكومة المركزية، وعند تغير الوضع غير قوليخان ولاءه ورفع العلم الإيراني في نغده وتولى بنفسه ادارة منطقة سولدوز، ونصّب نفسه باسم (قوام السلطنة) مديراً لناحية نغده، واصبح المقاتلون الذين مازالوا يحملون على صدورهم ميداليات (١٢ كانون الأول) اداة طيعة بيد الجيش وبدأوا بملاحقة واضطهاد من حافظ على ولائه للفرقة.

ولما سمعوا عن وجود الضباط السبعة في المقهى، وفي تلك الاثناء كان الضباط بالنسبة لتلك المخلوقات المرتدة لقمة دسمة يطهرون بها انفسهم من ذنوبهم السابقة، فالقبض عليهم وتسليمهم الى الجيش الحكومي جدير بقلب سجلهم الاسود في خدمة الفرقة. على اي حال فانهم يتوجهون ليلاً الى المقهى ويلقون القبض على السبعة: زَربَخت وإحساني وتيواي وأرتَشيار وعلي اصغر توكُلي ونيكولا. ويجردونهم من اسلحتهم، ثم يأخذونهم الى مسجد لاعتقالهم فيه ثم الى منزل كانوا يسمونه إدارة الناحية، وفي الطريق شاهدهم بارزانيٌّ يدعى (كاك صالح) فعرف قصتهم وذهب من فوره وأخبر الشيخ محمد صديق بالأمر.

وعندما كانوا يهيئون الضباط لتسليمهم مقيدي الايدي في مديرية الناحية ويجعلوا منهم قرابين للعدو، يصل ابن الشيخ محمد صديق بمعية مجموعة من المسلحين البارزانيين فيطلقون سراح الضباط ويجردون القَرَپاپاغيين من اسلحتهم، كما يستولون على ما في المبنى، فيصبح المقاتلون السيئون ومرتزقة الحكومة المركزية اسرى بيد الضباط ويحاول كل منهم تبرئة ساحته، كما يعيدون الى الضباط كل ما سلبوه منهم ويطلبون منهم العفو، ويظهر كل منهم درجة وفائه واخلاصه للفرقة، ودليلهم ميداليات (١٢ كانون الأول) التي لاتزال معلقة على صدورهم.

عندما وصلت الى نغده كان قد مضى على اطلاق سراح الضباط يومان ونجوا بذلك من خطر كبير. ودخلنا نغده بمراسيم عسكرية مع مدافعنا، وشكلنا قوة لا بأس بها: عشرة ضباط ومدفعان و(١٣٠) او (١٤٠) جندياً وحددنا

مكاناً خاصاً بنا وبقينا ننتظر عدة ايام. كان صبر الجنود ينفد شيئاً فشيئاً، لم يكن امامهم هدف، وفي الحقيقة كانوا يشعرون بانهم يؤدون لي عملاً اجبارياً. وكنت قد أحضرت معي من أذربيجان بعض المال ومنحت كل واحد منهم شيئاً منه لحين عودتهم واستعدت أسلحتهم منهم. وأبقيت بعضاً منهم لحماية المدافع بموافقة منهم طبعاً.

بعد فترة توجهت بمعية دليل الى أشنويه، واذكر انني عندما وصلت المقهى لقضاء الليل، قال احد رفاقنا: هذه أولى ليالي الشتاء (٢٢ كانون الاول) امامنا ثلاثة أشهر من برد الشتاء.

استأجرنا منزلاً هناك. كان المنزل لامرأة تعد لنا الطعام ايضاً. وكنا قد وضعنا جدولاً قسمنا فيه وقتنا، كما حددت وقتاً للاشراف على المدافع ومع وصولنا الى أشنويه ودعت بقية الجنود، واستعنت بعشرين من البارزانيين ادربهم على استخدام المدفع.

تقع أشنويه على سفح جبل تغطيه الثلوج، وكنا نخرج في الصباح الباكر لممارسة الرياضة في سفح الجبل، كنا نتدرب لمدة نصف ساعة ثم نعود الى البيت مهرولين ونتناول طعام الفطور، ثم نقضي بقية النهار نتجول بلا عمل.

كان الشيخ أحمد يسكن في دار من غرفتين، كانت إحداها مخزناً للتبن تم تنظيفه. كان أفراد عائلته يشغلون إحدى الغرفتين أما هو فيجلس على أريكة في الغرفة الثانية ويضع أمامه علبة فيها عيدان يقوم ببري الواحد منها حتى ينتهي ثم يبدأ بآخر، كان يفعل ذلك لمجرد التخلص من الفراغ أما أتباعه فكانوا يعتبرون ذلك عملاً من أعمال الحكمة وأن الأفكار تأتيه في أثناء ذلك. وكان الشيخ أحمد طيب الطباع شعبياً، لايلتفت الى السياسة إلا قليلاً. وكانت أمنيته الوحيدة أن يعود بالبارزانيين الى بارزان بأمان وفي كثير من احاديثه كان يتحدث عن امنيته في العودة الى بارزان، كان يذكر كروم بارزان، وعدسها وبقية محاصيلها. وبصورة خاصة كان يذكر النار التي كانوا يشعلونها في مواقد منازلهم في بارزان، كانت نيران بارزان عالقة في ذاكرة البارزانيين جميعاً. فعندما كانوا يوقدون ناراً يقولون:

– وَي كانها نار بارزان!

وكان ثم شخص آخر تلفت تصرفاته الانتباه وهو شاب يدعى سعيد، كان من

كُرد العراق، وكان يأتي الى أشنويه كل خمسة عشر يوماً[٨]. وكان هذا الشاب حلقة الوصل بين حزب رزگاري والعشيرة البارزانية، فقد كان ملا مصطفى الرئيس الفخري لهذا الحزب[٩]. وكانت جريدة (رزگاري) تصدر سراً باللغة الكردية، وهي أسبوعية. كان سعيد يحضر معه كل مرة نسخاً منها.

كان سعيد شاباً شجاعاً، وكان يظهر كل خمسة عشر يوماً، كنا نعرف متى يحضر فعادة كان يحضر في الساعة الربعة او الخامسة بعد الظهر وكان مما يشد انتباهي اليه انه كان يظهر من بين الثلوج المتساقطة على المرتفعات خلف أشنويه، فقبل الغروب كنا نرى شيئاً اسود ينحدر من بين الثلوج لايحمل إلاّ عصاه وحيداً، كانت جيوبه ملأى بالجرائد والأفكار ورسائل الى ملا مصطفى تنتظر الرد، كما كان يحضر معه الاموال للبارزانيين. وبعد انجاز مهمته كان ينام معنا وفي الغد كان يخرج مبكراً ويعود من نفس الطريق الذي اتى منه.

طوال الفترة التي كنا في كردستان كان سعيد صديقاً لنا، خاصة بعد اندلاع القتال بين البارزانيين والقوات الحكومية، كان يبقى بين ابناء العشيرة، وقد رافقنا حتى الحدود العراقية، وعلى الحدود ارسله ملا مصطفى الى العراق في مهمة فألقي القبض عليه ودخل السجن.

التجارب والاختلاط مع الكُرد ولّدت لدينا انطباعاً ان عدد مثقفي كُرد العراق اكثر ويتسمون بسعة الأفق والثقافة، في تلك الفترة كان لديهم حزب تقدمي هو (البارتي) وكانت له تنظيمات على أسس علمية، ولم تكن تنظيماته على اسس عشائرية أو قبلية، ورغم وجود بعض رؤساء العشائر في حكومة كردستان الشعبية حول القاضي محمد مع هذا فقد كان لهؤلاء (مثقفي كُرد العراق – المترجم الى الكردية) علاقات جيدة مع حكومة كردستان المستقلة في الواقع لم يكن هناك حزب مستقل ذو ميزات حضارية في الساحة، او انه كان موجوداً بشكل محدود. فقوة حكومة كُردستان الاساسية

(٨) يبدو أن هذا الشاب هو (حمه سعيد كاني ماراني) – المترجم الى الكردية.

(٩) نأسف مرة اخرى بان نقول ان المؤلف لم يراجع أي مصدر ولم يسأل أحداً فوقع في بعض الاخطاء فالفترة التي يروي المؤلف احداثها هي ربيع ١٩٤٧ حيث كان الحزب الديمقراطي الكردستاني قد أسس في ١٦ آب ١٩٤٦ برئاسة البارزاني الخالد، وتم حل حزب رزگاري لينضم الى الحزب الديمقراطي الكردستاني – المترجم الى الكردية.

كانت من عشائر: هَركي ومامَش ومَنگور وغيرها، والقاضي محمد كان محل احترام الجميع ويعد زعيماً دينياً.

انا لم أر القاضي لكنني التقيت محمد حسين خان الذي كان وزيراً للدفاع في حكومته، ذات مرة تحدث القاضي الى رفاقنا قائلاً:

– لقد اتصل بي پيشَوَري هاتفياً وقال "لقد غادرت البلاد فالتحق بي أنت ايضاً"، لكنني لا استطيع ان اترك شعبي لأنجو بنفسي كما فعل پيشَوَري، فاذا خطوت خطوة خارج مهاباد فان أبناء الشعب سيذبحون بعضهم بعضاً. فمن اجل الحفاظ على هذا الشعب ساضطر للبقاء في مهاباد حتى يصل الجيش ويثبت السلطة الجديدة. سأبقى هناك حتى لو انتهى الأمر بإعدامي.

ساعد القاضي محمد الجيش في تثبيت السلطة، وذهب بنفسه لاستقبال العميد هُمايوني قائد الجيش، لكي يمنع وقوع المذابح، وكان هدف الجيش هو ان يستقر بمعاونة القاضي محمد ثم يقلل من سلطته، فعندما وصل الجيش الى مهاباد لم ينحّ القاضي من منصبه، فقد بقي كقائد يدير البلاد من مقره الخاص في مهاباد، وبعد ان استقر الجيش القي القبض على القاضي محمد ومحمد حسين سيف القاضي، وصدر القاضي واعدموا بطريقة جبانة، فتحية لارواحهم.

على كل حال فبعد عودة ملا مصطفى البارزاني من طهران، وحسب الاتفاقية التي ابرمت ترك البارزانيون نغده واستقروا في مناطق أشنويه ودَشتَبيل ومَرگوَر.

بعد اعتقال القاضي محمد، تحدث الينا العقيد غفاري في إحدى زياراته الى أشنويه، واوضح لنا ان اعدام القاضي محمد واقرباءه سيكون آخر إعدام ينفذ، والافضل لنا ان نفيد من هذه الظروف ونسلم انفسنا، وننجو مما نحن فيه من ضيق الحال، كنا نريد مبادرة جيدة كي نسلم انفسنا، بان يصدر عفو رسمي عنا ويذاع من راديو طهران.

جرى هذا الحديث بيننا بحضور ملا مصطفى. ورد علينا العقيد غفاري بالقول "جيد، هذا متوقف على السيد ملا مصطفى، لانه وعد في طهران ان يسلمكم". غضب ملا مصطفى كثيراً من هذا الكلام ورد عليه قائلاً: "لماذا تكذب؟ لقد اخبرت ملككم بانني مستعدٌ ان اسلمكم ثمانية عشر شاباً بدلاً

من هؤلاء. ان هذا عارٌ على عشيرة بارزان ان تقبض على ستة شبان وتسلمهم اليكم".

بدأ العمل من اجل تسليم انفسنا عن طريق العقيد بيگلَري قائد القوة التي استقدمت لقتال البارزانيين. كنت اعرف العقيد بيگلَري من قبل، منذ ان كان قائداً للفيلق الثامن في خراسان. وكان يعرفني ايضاً ويريد ان يستفيد من هذه المعرفة، كان يوجد في ذلك الوقت تلفون ميداني بين أشنويه ونغده وكان هذا التلفون تحت تصرف الشيخ سليمان – ابن اخ الشيخ أحمد وكان الشيخ سليمان بمثابة وزير الخارجية للشيخ احمد. كان رجلاً حكيماً ويجيد الفارسية، ارسل في طلبي يوماً وقال ان العقيد بيگلَري يريد التحدث معي. في ذلك الحديث التلفوني ذكّرني العقيد بيگلَري بالصداقة القديمة وطلب مني ان نسلم انفسنا، ووعد باطلاق سراحنا وطمأننا بان يكون عوناً لنا، وأقسم بشرفه على تنفيذ تلك الوعود. وفي نفس الوقت كان يهدد بانه لم نفد من تلك الفرصة فان الوقت سيفوت، ولكنني وبحجة اننا لانستطيع الاعتماد على وعوده الشخصية، اعتذرت من توسلاته المتتالية قائلاً: "نحن ندافع عن انفسنا، ولدينا مدفعان، وثقوا بان اصابعنا لاتهتز على الزناد".

كان ذلك في ١٢ آذار وقد بقيت ثلاثة ايام ليبدأ هجوم الجيش من كل الجبهات. وكما اسلفت فان الطرفين، الجيش والبارزانيين كانا يعدان العدة للمواجهة. وقامت الحكومة بتسليح بعض العشائر ومن اهم هذه العشائر (مامَش ومنگور) الذين كان زعماؤهم يتلقون الأموال من الحكومة، وعند المواجهات كانوا يساندون الحكومة. علاوة على انهم كانوا يقومون بنقل قطعات الجيش المختلفة من مناطق أذربيجان الاخرى ويوزعونهم حول المنطقة التي كان البارزانيون قد لجأوا اليها.

وبالمقابل كان البارزانيون منهمكين بحفر الخنادق وتقوية السواتر لكي يتمكنوا اضافة الى الدفاع عن انفسهم من استغلال الفرص السانحة حتى يتحسن الجو ويغادروا إيران. كانت اولى ضربة وجهها البارزانيون تلك التي مرغوا فيه انوف عشيرتي منگور ومامش، فقد وصلت الاخبار الى البارزانيين ان قادة ووجهاء مامش ومنگور قد اجتمعوا في قرية تدعى صوفيان مركز منطقة (لاجان) ليتحالفوا ضد البارزانيين.

انطلق ملا مصطفى ومعه مجموعة من المسلحين، ووصلت الاخبار في الغد بان ملا مصطفى قد اقتحم وكرهم في صوفيان وقتلهم جميعاً واخذ اثنين منهم اسرى وتمكن من الاستيلاء على كمية من اسلحتهم احضرها الى أشنويه[١٠] وعلاوة على هذا فانه مرّ في طريق عودته بمناطق عشيرة هركي وتحدث الى رؤسائهم واستحصل منهم الوعود بان لايقاتلوه، كما جمع كميات من المواد الغذائية في أشنويه لتلافي الجوع عند اندلاع القتال. ومما يجدر ذكره ان الكُرد عامة لم يكونوا يريدون الدخول في مواجهات مع البارزانيين، لانهم رجال شجعان ومقاتلون اشداء.

والعشائر الكُردية وكشيء متجذر في نفوسهم كانوا يشعرون بصلة روحية تجمعهم ولم يكونوا على استعداد للدخول في حرب ضد بعضهم البعض. بل أنه في وقت الحرب كان الكُرد الذين يجلبهم الجيش لقتال البارزانيين يتصلون بملا مصطفى ويخبرونه بمكان وتوقيت الهجمات، وعند بدء القتال كانوا يفرون من المواجهة.

كان تنظيم ادارة العشيرة حسب سلسلة الشيوخ، ولم يكن تنظيماً عسكرياً او حزبياً، كان الشيخ احمد رئيس العشيرة ويليه اخوانه وكان كل واحد منهم مسؤول عن قسم، يليهم ابناؤهم الذين كان يقودون الفئات الصغيرة، وبعد اولاد الشيوخ كان هناك بعض من اقاربهم المقربين الذين ابلوا في المعارك بلاءاً حسناً يتولون بعض المسؤوليات الصغيرة.

في ١٥ آذار، استيقظنا كعادتنا في حوالي الخامسة او السادسة صباحاً وتوجهنا الى ضفاف نهر أشنويه وانشغلنا بالرياضة الصباحية عندها سمعنا اصوات المدافع ترتفع. على بعد عدة كيلومترات عن أشنويه وعلى ضفاف نهر گادَر كانت تقبع قرية اسمها (سينگان) كان البارزانيون قد شكلوا قوة مؤلفة

(١٠) لقد وقع الكاتب في خطأ، لان هذا الحادث هو نفس حادث قرية (سيلوي) الذي ذكرناه في مقدمة هذا الكتاب، ولا أرى ضرورة اعادة سرده، ولكن يجب ان نذكر ان البارزاني الخالد لم يشترك في هذه الحادثة، بل على العكس غضب المرحوم الشيخ أحمد البارزاني كثيراً مما حدث. وللمزيد من المعلومات يمكن الرجوع الى كتاب السيد مسعود البارزاني: البارزاني والحركة التحررية الكردية، ثورة بارزان ١٩٤٥–١٩٥٨، ص٥٦، وهو من أوثق المصادر في هذا المجال. وكذلك كتاب وليم إيگلتن: جمهورية ١٩٤٦ الكردية، الص ١١٩–١٢٠، طبعة ١٩٦٣ – المترجم الى الكردية.

من رشاشة ومجموعة من سبعة او ثمانية اشخاص مسلحين بالبندقيات وكان الجيش يعسكر في الضفة الاخرى لنهر گادر، وعلى حين غرة وجه الجيش نيرانه الى سينگان الواقعة على مرتفع يشرف على أشنويه، إذ أنه في حال تمكن الجيش من السيطرة على هذا الموقع كان سقوط أشنويه سيصبح وشيكاً، وان الذين كلفوا باحتلال سينگان كانوا من فرسان عشائر (مامَش ومانگور) يقودهم ملازم ثالث في الجيش.

مع سماعنا اصوات المدافع علمنا ان احداثاً غير متوقعة قد بدأت. لم تكن لدى الجيش حجة لضرب البارزانيين، لان البارزانيين لم يكونوا ينوون الدفاع عن ارض ليست ملكاً لهم، بل كانوا ينتظرون انتهاء موسم الشتاء البارد حتى يلجأوا الى مكان آخر، وكان الجيش على علم بهذا الامر ومع ذلك لم تكن مهاجمة البارزانيين من الأمور المستبعدة.

ودون اي تردد جمعت مجموعة الكُرد الذين كانوا يعاونونني في تهيئة المدافع، وجهزت المدافع، ثم توجهت الى منزل الشيخ أحمد الذي كنت استطيع الذهاب اليه في اي وقت اشاء بفضل العلاقة الموجودة بيننا، وجدت الشيخ متوتراً، وكان قد ارسل الشيخ سليمان الى سينگان للدفاع عنها وطلب مني اللحاق به، في ذلك الوقت كان ملا مصطفى في مَرگوَر وكان الجيش قد بدأ بشن هجماته من أورميه نحو مَرگوَر.

اخذت المدفع الى سينگان وتهيأت للبدء بالقصف، واول ما تبادر الى ذهني هو اسكات المدافع في الضفة المقابلة، لان القصف المدفعي مخيف بالنسبة للذين لم يألفوه، وكان قصف العدو قد خلق ارباكاً كبيراً في صفوف المدنيين. عندما وصلت الى سينگان كان فرسان (مامَش ومَنگور) ينحدرون من المرتفعات المقابلة نحو نهر گادَر، ومع أولى القذائف التي خرجت من مدفعنا سكتت مدافع الجيش، وكان يبدو ان الذعر في صفوف الجنود كان السبب في اسكات المدفع، ثم وجهت المدفع صوب الفرسان الذين كانوا مبعثرين في سفح الجبل، وترقبت حتى تؤاتيني الفرصة لاطلاق القذيفة الثانية، كان يتوجب ان تكون الضربة مؤثرة حتى تنتهي المعركة بسرعة قبل وقوع خسائر بشرية كبيرة، وكان هدفنا هو زرع الفزع بين صفوف العدو وإجباره على الانسحاب. كنت انتظر تجمع المهاجمين على ضفة النهر، وكنت اعلم انهم يترددون في عبور

النهر ويؤخرون تحركهم لهذا فانهم سيتجمعون قريباً، وحدث فعلاً ما توقعت فاطلقت قذيفة نارية فوقهم كان لها بريق البرق ووقع الصاعقة، ولم اكن اريد قتل احد منهم، وكانت تلك القذيفة سبباً في ترك رجال (مامَش ومَنگور) ساحة المعركة، إذ امتطوا جيادهم وولوا هاربين، بعدها لم نواجه رجال مامَش ومَنگور في المعارك القادمة. لاحقتهم بقذائفي حتى اجبرهم على الفرار التام وبهذا الشكل انتهت المعركة في بدايتها، وانتهى كل شيء بحلول الساعة التاسعة صباحاً.

بعث استئناف القتال معنوياتنا من جديد، لاننا كنا نعاني من الملل والكسل خلال الاشهر السابقة مما جعلنا نفقد قوانا وكنا نعتقد ان مصيرنا سيتضح مع استئناف القتال، فاما ان نقتل او ننجو، او... على أي حال فقد كنا نستعجل مصيرنا.

بعد يأسهم، تمكزت قوة الجيش في قرية تدعى نَلوس وكنا نفكر في شن هجوم على ذلك الموقع، وكانت هناك قوة من البارزانيين مؤلفة من عشرين مقاتلاً تواجه الجيش في ذلك الموقع، وفي الليل اخذت المدفع الى موقع يشرف على نَلوس، كان قرية صغيرة تدعى «گندوله» منتظراً فرصة سانحة.

كان الفوج الذي وضع سينگان تحت رحمة نيران المدفعية، يستعد للالتفاف والتقدم بعد الفرسان، لكن مع فرار فرسان مامَش ومَنگور ترك الفوج نَلوس وتمركز في التلة الصغيرة الواقعة خلفها والمشرفة على سهل أشنويه، لكنه بذلك قطع على نفسه طريق الامدادات الغذائية والمياه. وقام الرائد كلاشي آمر الفوج بتخطيط مربع حول التلة وامر الجنود بحفر السواتر، ونصب مدفع وسط المربع الذي رسمه، في اليوم التالي كان الهواء طيباً نوعاً ما والارض يابسة ما عدا التربة الناتجة عن حفر الخندق فكان ما يزال رطباً وكان يبدو داكن اللون من بعيد فكان بذلك هدفاً سهلاً لانه كان واضحاً جداً من موقعنا الذي كان يبعد عن التلة التي خيم فيها الفوج تسع كليومترات، كان فوج العدو مؤلفاً من حوالي ثلاثمائة جندي وعدد كبير من الخيول والبغال ومدفعين واربع رشاشات برين ثقيلة وستة مدافع هارون وكمية قليلة من المؤن. كان آمر الفوج قد عسكر بهم جميعاً على تلك التلة داخل المربع الذي رسمه، بعد ان أسرنا افراد ذلك الفوج ووقع ارشيفهم تحت ايدينا تبين لنا مدى ما اصابهم من خوف

وفرغ من خلال التقارير التي كانوا قد كتبوها. وكانوا بمغادرتهم نَلوس قد حرموا انفسهم من الحصول على المؤن والماء بصورة خاصة، ورغم كون نهر گادَر في متناولهم، فانهم لم يجرأوا على الاقتراب من ضفافه فبقوا (٢٤) ساعة دون ماء.

كان المسلحون البارزانيون البالغ عددهم عشرين مسلحاً قد دخلوا نَلوس دون قتال فور ترك الجيش للموقع، وكان البارزانيون موزعين على المواقع التي تشرف على مواقع الجيش وكانوا يطلقون عليهم رصاصة واحدة بين فينة واخرى. فظن افراد الفوج أنهم محاصرون من الجهات الاربعة، حتى انهم لم يجرأوا على التوجه الى جبهة صوفيان التي كانت مركزاً لمساندتهم وظهيراً قوياً للجيش، علماً ان الطريق التي خلف مواقعهم كان آمناً وصالحاً حتى لمرور السيارات.

لقد جلب انتباهي تمركز الفوج حول تلك التلة الصغيرة، وبغية جعلهم هدفاً للمدفعية قررت التوجه الى اقرب نقطة منهم، ومن اجل ذلك كان علي اخذ المدافع على طريق سهلي على مرأى منهم، وكان ذلك ممكناً بسبب البلبلة والتوتر في صفوف الجنود من افراد الفوج. وفعلاً تمكنت من تثبيت أحد المدافع على ميسرة موقعهم، وعندما اطلقت ثاني قذيفة أصابت مدفعهم المنصوب في مركز المربع الذي يجتمعون فيه. اختفى افراد الفوج جميعاً، وكنت اراقبهم بالمنظار كل يفر الى جهة حتى حيواناتهم، ولأقطع عليهم طريق الهروب واجبرهم على العودة الى مربعهم كنت اطلق القذائف على مقدمتهم، بعدها قام احد رفاقي وهو (محمود توكلي) بمعية عشرة مقاتلين بالتقدم الى التل وتمكن من اسر كافة افراد الفوج، ثم ساقهم بمسيرة عسكرية نحو أشنويه.

لم تكن خسائرهم البشرية كبيرة لاننا كنا نحاول قدر الامكان عدم قتلهم، ولكن من اول اطلاقة كان الرائد كلاشي قد جرح جرحاً بليغاً وانتحر بعد اصابته، وعندما حوكمت فيما بعد كانت احدى التهم الموجهة اليّ هي قتل المرحوم كلاشي، رغم ان الذي يقتل اثناء المعارك ليس قاتلاً وليس القتيل مجنياً عليه. وتم خلال هذه المعركة الى جانب الاستيلاء على أسلحة الفوج، أسر سبعة ضباط وسبعة عشر عريفاً وحوالي ثلاثمائة جندي. بعد ذلك القصف المدفعي ذاع صيتي كثيراً، ولو استمرت المعارك لم يكن مستبعداً ان اصبح

رئيساً لإحدى القبائل في كردستان. كان البارزانيون يقولون: السلطان تَفرشيان بعثه الشيخ الينا، ان هذا من معجزات الشيخ فبإطلاقة مدفع واحدة دمر مدفع العدو.

وتولدت تدريجياً لديهم قناعة بانهم اينما تعرضوا لمشكلة فان وصولي الى تلك المنطقة يكفي لحلها. لانهم لم يكونوا يعرفون من قبل قدرة وقوة المدفع، وما كان يعجب له ان اسمي كان يحل كل العقد التي تواجههم. فمثلا عندما كانوا يجوعون كانوا يتوجهون الى القرى ويطلبون ما يشاؤون باسم ضابط المدفعية.

- ضابط المدفعية يريد خبزاً، يريد بيض دجاج أو دجاجاً، على اية حال فقد اصبح ضابط المدفعية رمزاً للقوة. بعد ذلك اصبح البارزانيون يحترمونني كثيراً فيقدمون لي افضل الطعام ويوفرون لي اوثر الفراش، وعندما كنت اتوجه الى مكان ما كان ما يقارب العشرة او الخمسة عشر رجلاً منهم يرافقونني ويحمونني.

ان ذلك الانتصار جعل البارزانيين يأخذونني معهم الى كل جبهة عندما كانوا يريدون تحرير قرية او منطقة. رغم ان السيطرة على تلك المناطق وحمايتها كانت عديمة الفائدة وسبباً في خلق المشاكل، الا أن اقناعهم بهذا كان امراً صعباً، كنت احاول دائماً ان اقنع شيوخ البارزانيين بانه يتوجب علينا الدفاع فقط وان نبتعد عن صدامات لا معنى لها وان نجمع الرجال بدلاً من توزيعهم على مناطق متفرقة. فكان يمكننا ان ندافع عن انفسنا ثم ننسحب تدريجياً نحو العراق، لان هدفهم كان العراق.

في احدى المرات قمنا بمحاولة فاشلة للسيطرة على قرية صوفيان - مركز الإسناد والقوة الهامة للجيش، فذهبت جهودنا سدى. ولكنني استفدت من تلك المعركة، فقبل ذلك كنت اخاف من قذائف المدفع ولم يسبق ان انفجرت فوق رأسي، ولكن بعد تلك المرة انتهت عقدة خوفي منها. كنت في تلك المعركة متحصناً في خندق واغطي هجومنا بالقصف المدفعي الى ان كشف العدو موقعنا، فبدأ يقصف الموقع بكثافة. إن صوت قذيفة المدفع كبير جداً ومخيف، والإنسان عندما يسمع صوتها يشعر بأنها تنفجر في رأسه، ثم يكتشف أنها انفجرت على بعد مائتي متر. لهذا كنت أخاف كثيراً في

البداية، ولكن بعد إنفجار عدة قذائف، تمكنت من تجميع قواي والسيطرة على نفسي، ثم خرجت من الخندق ونقلت المدفع والرجال الى مكان آمن. كان اليوم ٢١ آذار (عيد نوروز) ١٩٤٧- واحتلفنا في الخندق بعيد نَوروز بإطلاق نيران مدفعيتنا.

على أية حال، كنت أعتقد أن الدفاع عن المنطقة أمر غير صحيح، لذا أرسلت المدافع صوب أشنويه واستشرت الشيخ سليمان في أمر ترك المنطقة كلياً. لان شهر آذار كان يشرف على الانتهاء، فقد بدأت الثلوج بالذوبان، وبقاؤنا أكثر في المنطقة كان يلحق بنا خسائر بشرية أكثر. تفهم الشيخ سليمان وجهة نظري لكنه لم يكن يجرؤ أن يعلم الشيخ أحمد بذلك، فطلب مني أن اتوجه الى (گيلاس) - منطقة محصنة كانت مقر الشيخ أحمد - كي أقنعه بوجهة نظري.

في البداية تحدثت عن الأسرى، فكما قلت سالفاً: أخذهم محمود توكلي الى أشنويه وأودعهم في جامع هناك. في الصباح توجهت الى أشنويه كي أراهم، الضباط الأسرى كانوا يرتدون زي الجنود كي لايتعرف أحد عليهم، لاحظت بينهم وجهاً أعرفه، إنه الملازم الأول كمالي، كنت أعرفه من أيام الكلية العسكرية، وكان معي في السنة الأولى من الكلية، عندما ناديته باسمه تملكه الخوف ثم أقبل يعانقني، لمته على تغيير ملابسه، فقال: خوفاً من الكرد. طمأنته بأن الكرد لا علاقة لهم بالأسرى، ثم سألته عن بقية الضباط فعرفوا أنفسهم، وكان بينهم ضابط عرف نفسه بهذا الشكل:

- خادمك (خوادوست)!

ضحكت ثم سألت عن رتبته، فقال:

- سيدي الرتبة ليست مهمة، في الجيش كانوا يدعونني نقيباً، ولكني طبيب، وبالنسبة لنا لا فرق بين صديق أو عدو، فخادمكم مجرد طبيب.

قلت:

- أرجو أن تتخلى عن مناداتي بسيدي وتسمية نفسك بالخادم، لقد حصل ما حصل وستعودون الى أهلكم قريباً.

فقال:

- كما تعلم أن هذا كله هو من أجل لقمة العيش، وقد أصبحنا ضباطاً لكسب

تلك اللقمة. كنت أتمنى في هذا الشتاء أن أكون تحت كرسي[١١]. ما لنا وما لهذه الحرب.

كان الأسرى يشكون من قلة الطعام ومحل احتجازهم، فأخبرتهم أن البارزانيين أنفسهم يعانون من شحة الطعام وأنني أكتفي في بعض الليالي بكسرة خبز أو شيء من القمح المشوي، وفي ليالي أخرى لا أحصل حتى على ذلك. في تلك الليلة عزلت الضباط واصطحبتهم معي. وفي الصباح تحدثت الى الشيخ أحمد في أمر إطلاق سراح الجنود والعرفاء. وبينت له أن الجيش لايعاني نقصاً عددياً من حيث الرجال فيعيد هؤلاء الى الجبهة ثانية. ثم أن هؤلاء أصابهم من الخوف ما يحول دونهم ودون خوض معارك أخرى. كما أننا لانملك ما يكفي لإطعامهم. وافق الشيخ بالأخير، فأسلمنا هؤلاء الى رفيقنا (جواد أرتشيار) ليأخذهم الى موضع قريب من جبهة العدو ويطلقهم هناك.

وهكذا لم يعد عندنا أسرى سوى الضباط الذين صاروا يعيشون بيننا. إلا أنهم وخصوصاً النقيب خوادوست الذي ذكرته آنفاً كانوا منهارين تماماً. فمثلاً عندما انسحبنا من أشنويه، أخذنا هؤلاء معنا، وفي الطريق ظهرت طائرة تابعة للجيش تحلق فوقنا، فدنا مني خوادوست وهمس في أذني أن أطلب من هؤلاء الكرد أن ينكصوا بندقياتهم لئلا يلفت بريق حرابها انتباه قائد الطائرة فيقصفنا، وقال ايضاً:

- إن الضمير يلقي عليكم مسؤولية حمايتنا وعدم تعرضنا للقتل.

وهنا لا أجد بأساً في أن أقول إن هذا «الخادم» كان الضابط الوحيد الذي شهد ضدنا، وكان يروي أساطير مبالغ فيها أمام المحكمة حول جرائمنا. في وقت أن العقيد (بيگلَري) قائد القوة، والذي أصبح فيما بعد عميداً، قال في المحكمة:

- أن لم أرَ هؤلاء السادة في المنطقة، ولكن كان الشائع أنهم مع البارزانيين، ويحاربون ضد الجيش. على كلٍّ، وحتى لو كان ذلك صحيحاً، فإن هؤلاء مازالوا شباباً.

(١١) هناك عادة شائعة في ايران أنهم يضعون قنديلاً تحت منضدة ويغطونها بقطعة قماش كي لاتنفذ الحرارة، ويجلسون حولها ويمدون ارجلهم تحت المنضدة كي تتدفأ - المترجم الى الكردية.

عندما وصلت الى (گيلاس) كان ملا مصطفى البارزاني والشيخ طه رئيس عشيرة الهركي هناك. وفي اجتماع حضره الشيخ أحمد، قلت: إننا لا ندافع عن منطقة معينة، بل عن أنفسنا فقط، فالأفضل أن ننسحب من أشنويه الى مكان أكثر أماناً. كما ذكرت لهم أن البارزانيين لايقاتلون الآن جيداً كالأيام الأولى لأنهم لايجدون دافعاً أو سبباً في القتال أو الدفاع عن منطقة معينة، فهم يدافعون عن أطفالهم ونسائهم وماشيتهم ويتمكنون من نقلهم من مكان الى آخر.

قبلوا وجهة نظري، وحسب توجيه ملا مصطفى تقرر أن أنقل المدافع الى جبهة مَرگوَر. قمنا بتدمير عربتي المدفع اللتين غنمناهما وانسحب البارزانيون من أشنويه، وبعد يوم من الإنسحاب دخل الجيش أشنويه.

لحد ذلك اليوم لم يكن للبارزانيين خطة أو هدف واضح لكن بعد هذا أصبح البرنامج واضحاً، القتال والإنسحاب وحماية الخطوط الخلفية وانسحبت العشيرة برمتها الى حدود العراق. وقمت مع المقاتلين البارزانيين بوضع خطة القتال في جبهة مَرگوَر وهو أن نحمي العشيرة حتى تتمكن من الوصول الى الحدود. بهذا تجنبنا المواجهة تماماً، وأخذت المعارك شكلاً آخر وهو انتهاز الفرص للإنسحاب، كان القتال والنجاة محل إعجاب من نواحي عدة.

في إحدى الليالي كنا في مَرگوَر على جبل شيركان حيث مقر ملا مصطفى البارزاني، وبعد الاطلاع على خطة البارزانيين كنا نتهيأ في جلسة جمعتنا مع ملا مصطفى للتخطيط لما نفعله في الغد. استمرت محادثاتنا حتى الرابعة صباحاً. وعند الفجر تراءى لنا من بعيد شبح تبيّننا أنه أحد أفراد عشيرة هركي. ولما وصل قال لنا نحن مائة منالفرسان ومن المقرر أن نهاجمكم صباح الغد مع الجيش، ولأننا لانريد قتال إخواننا الكُرد فما عليكم إلا إلقاء بضع رمانات يدوية بعد ساعة من الآن في الوادي القريب منكم حيث نتمركز فنلوذ نحن بالفرار ويبقى الجيش ولكم أن تتصرفوا معه كما تشاؤون.

كانت هذه المرة الثانية التي أشاهد فيها مثل هذا الموقف، ففي إحدى المرات كنت جالساً عند محمد آغا ميرگسُوري - أحد شيوخ بارزان - في (قَلاتان) بمنطقة أشنويه عندما جاء فارس وتحدث مع محمد آغا ثم خرج. فقال لي محمد آغا: ان هذا الفارس من العشيرة الفلانية ويقول أن تعدادهم ستون

فارساً في الموقع الفلاني، ويريد أن نقصف المنطقة بقذيفتي مدفع كي يفروا.

لو تأملنا موقف هؤلاء الكرد مع المواقف الأخرى التي تحدثت عنها تظهر لنا معنوياتهم ومدى مساندتهم للجيش. فتقريباً كنت متواجداً في كل الجبهات وعدا الهجوم الذي شنته عشيرتا (مَنگور ومامَش) على سينگان لم ألمس للكرد وجوداً في دعم الجيش ومساندته. وبعد انتصار الجيش سمعنا أن بعض رؤساء العشائر يتحدثون عن أنفسهم كأبطال، وحاولوا إثبات ولائهم للملك، لكن الحقيقة هي أن الجماهير الكردية الأصيلة لم تكن مستعدة للقتال مع أخوتهم الكرد.

على أية حال فإن الجيش نفذ هجومه بشكل منتظم في الليلة التالية. وحسب الإتفاق فمع إنفجار عدة قنابل يدوية ترك فرسان الهركي الجبهة متوجهين الى السهول والبراري. ولكن كانت المرة الأولى التي أشاهد فيها الجيش يشن هجوماً منتظماً، فقد بدأت الطائرات بقصف مواقعنا، ثم أمطرتنا المدفعية بوابل من قذائفها ثم تقدمت الدبابات تليها قوات المشاة. وكانت الطائرات تحلق على مستوى قريب لتوفر لهم الحماية، لكن مواقعنا كانت حصينة جداً. كان تعداد البارزانيين في هذه الجبهة لايتعدى الاربعين مقاتلاً لانه كما اتفقنا في الليلة الماضية كان علينا أن نترك ذلك الموقع جميعاً، وأن يكون موقعنا في الجبل الامامي لكي نشل حركة الجيش مدة (٢٤) ساعة على الاقل، كي تتمكن العشيرة من الاستعداد وتبدأ الانسحاب.

في الليلة التالية تمكنت من الوصول الى الجبل الذي يقع خلفنا رأيت في موقعنا السابق ما يقارب المائة موقد نار قد اشعل فظننت ان البارزانيين وخلافاً لقرارنا السابق لم يتركوا الموقع بعد. وعندما رأيت ملا مصطفى وسألته عن السبب، قال: لقد تركنا الموقع واشعلنا تلك النيران لتضليلهم، فالعسكريون سيتوقعون وجود عشرة اشخاص حول كل موقد، فيظنون أن تعدادنا ألف رجل. وبعد أن يحققوا انتصارهم في الغد سيتعجبون من انهم كانوا لايحاربون إلا خيالنا.

هذا التاكتيك، الكر والفر، اشعال النيران والانسحاب، استمر كثيراً حتى تمكنت العشيرة كاملة من مغادرة مَرگوَر. بقيت في مَرگوَر اربعة ايام، وذات ليلة اصطحبني ملا مصطفى الى جلسة فيها كل مسؤولي الجبهات وكان

الشيخ محمد صديق حاضراً فيها. بعد تبادل المعلومات والبحث في ظروف واحوال الجبهة ورجال العشيرة تقرر: (التقليل من المواجهات، التقليل من استخدام الاعتدة والذخائر، وكذلك التقليل من استهلاك المؤن و... الانسحاب نحو گادَر). وتولى ملا مصطفى حماية ظهر العشيرة، وكنا جميعاً متفقين على ذلك.

ما شد انتباهي في هذا الانسحاب هو مدى تحمل البارزانيين للصعاب. بدأ القتال في ١٧ آذار ١٩٤٧ وها نحن الآن في ٩ نيسان، توقلنا سلسلة جبال زاگروس المحاذية للحدود العراقية، كنا كلما تسلقنا عالياً ازدادت كميات الثلوج، فكانت في بعض الاماكن تصل متراً كاملاً. كان الصقيع يغطي بعض الاماكن حتى أن بعض دوابنا لم تكن تستطيع الصمود حتى النهار فكانت تتجمد من البرد القارس. لكن هذه الظروف كانت شيئاً اعتيادياً بالنسبة للبارزانيين، كانوا ينقلون الاطفال والنساء والمواشي من بيت الى بيت، وينصبون الخيم، ويخبزون. وبعد ساعات قليلة من الاستراحة كانوا يستأنفون المسير، ولم نكن نحن نتحمل تلك الظروف. كان الضباط الاسرى عبئاً ثقيلاً بالنسبة لنا، فتحدثت مع ملا مصطفى واستحصلت موافقته على اطلاق سراحهم. فنحن لم نكن نملك طعاماً ومن الناحية الانسانية كان علينا مراعاتهم اكثر من أنفسنا. ثم تحدثت بعد ذلك مع الشيخ احمد، وصادف وجود (سيد) من سكان (زيوه) مركز مَرگوَر ارسله الجيش للقاء الشيخ احمد فتقرر ان يقوم السيد باخذ الضباط الاسرى معه.

في تلك الايام لم يكن الجيش يتمكن من الوصول الى البارزانيين لكن الطيران كان يلحق بهم الاضرار. كانت المنطقة مغطاة بالثلوج وكانت اثار مسيرة العشيرة تظهر على الثلوج، وكانت تلك الآثار دليلاً للطائرات التي كانت تستدل على موقع العشيرة بها، وكانوا يمطرونهم دون رحمة بالرشاشات. وبهذا العمل زرعوا الخوف والفزع فينا، كان المسلحون وحماة الخلفية لايصابون باية خسائر لانهم كانوا في مواقع محصنة، لكن الاطفال والنساء والمواشي كانت تتعرض الى خسائر كبيرة.

كان البارزانيون لايواجهون الطائرات عادة، لان التجارب اثبتت أن اطلاق النار على الطائرات – بالبندقيات طبعاً – لايأتي بنتيجة وليس له نتيجة غير

خسارة الذخائر. لهذا السبب كانت الطائرات سيدة الأجواء، وكانت تطير على مستويات منخفضة جداً دون خوف او وجل حتى كان من الممكن مشاهدة الطيارين بكل وضوح. وبعد أن ازداد عدد الضحايا، اصدر الشيخ احمد أمراً الى كل المسلحين بان يطلقوا النار على الطائرات من كل الجهات بمجرد ظهورها، وفي اول هجوم لها بعد هذا الامر، اصيبت احدى الطائرات، وكانت مع ابتعادها عنا تنخفض شيئاً فشيئاً، ووسط دهشة البارزانيين سقطت الطائرة في سهل مَرگوَر واشتعلت فيها النيران واحترق الطياران بداخلها. بعدها كانت الطائرات تحلق على ارتفاع عال جداً وتتخلص من قنابلها وتعود الى مواقعها.

في اليوم الذي تقرر إطلاق سراح الضباط الاسرى، ابقى الشيخ احمد على احدهم كرهينة وهو الملازم الاول (جيهانباني) وكان ابن اللواء (أمان الله جهانباني)، كان الشيخ احمد يعتقد أنه بابقاء هذا الملازم فانه سيجبر قائد الجيش على عدم التمادي وذلك لشهرة عائلة هذا الضابط، فارسل رسالة الى قائد الجيش مفادها أنه في حال لم تكتف الطائرات عن قصف الاطفال والنساء فانه سيقتل الرهينة. لم تكن توقعاتي صحيحة هذه المرة، فكنت اقول أنه لو تطلبت مصالحهم قصفنا فانهم لايأبهون بحياة هذا الضابط، لكنهم حفظاً لحياة هذا الضابط ام خوفاً من المقاومة التي تعرضوا لها، فان الطائرات توقفت عن القصف العشوائي وبدأت تحلق عالياً وكانها فقط تراقب المرتفعات.

هذا القصف شملنا نحن ايضاً، فقد اصابت شظية احدى القنابل ساق احد رفاقنا وهو (عزت علي اصغري) وقد شله الجرح عن الحركة فاضطررنا لحمله. كان حمل جريح في تلك الظروف، البرد والثلوج والمرتفعات الصعبة امراً مأساوياً، كان جرحه بليغاً مما زاد من صعوبة حمله، في البداية حملناه على دابة، فلم يتمكن من امتطائها ثم حملناه على ظهورنا فكان صراخه يشق عنان السماء، ثم صنعنا له نقالة ببندقيتين وبطانية، وهذه المرة ايضاً لم يتحمل لكن لم يكن أمامنا حل آخر، ولما اقتربنا من الحدود ذهبت الى ملا مصطفى كي يجد لنا حلاً، فعرفني بشخص كان يبدو أنه جراح العشيرة، يحمل من ادوات التضميد كلاّباً فقط، كان الجراح يدعي بان الجريح لو تحمل الالم فانه سيخرج الرصاصة في لمح البصر، لم يكن امامنا حل آخر، شددنا وثاق صاحبنا وتركنا

فمه مفتوحاً، اخرج الجراح كلاّبه من كيس تبغه وبلله بلعابه وغرسه في الجرح، بعد برهة من البحث علا صراخ صاحبنا واخرج هو كلابه، وبعد مرور يوم التهبت ساق الجريح وكانها وسادة، كان الحل الوحيد لصاحبنا هو إرساله الى العراق. فنقلناه بنقالة الى الجهة الاخرى من الحدود وسلمناه هناك، والتقيناه فيما بعد في سجن ابو غريب.

كان في القافلة المنسحبة علاوة على البارزانيين اناس آخرون. هؤلاء كانوا من الذين التحقوا بفرقة أذربيجان الديمقراطية وكانوا يفرون خوفاً من انتقام الحكومة المركزية او انتقام الانتهازيين، او كانوا من الكُرد الذين لايشعرون بالامان في إيران او لهم مصالح مادية في العراق.

احد هؤلاء كان الشيخ طه الهركي الذي كان ينسحب برفقة مجموعة من رجال عشيرته وكانت له املاك وثروة في العراق، ويقال انه كان يعاون القاضي محمد ولم يكن رجلاً سيئاً. وكان من بينهم مجرمون معروفون وعلى رأسهم شخص يدعى زيرو بگ كان يفر خوفاً من الكُرد.

كان زيرو بگ من اعوان احد آغوات الهركية الذي كان في ذلك الوقت عضواً في مجلس النواب العراقي وله املاك في إيران. وكان قد جمع حوله مجموعة من الاشخاص ووضع لنفسه قبيلة سماها بَهادُر ونصب نفسه رئيساً لها. وفي فترة حكم حكومة كُردستان الشعبية منح نفسه رتبة عقيد، وكان مقره في (بالانوچ) على الطريق بين أورميه ومهاباد، وكل سيارة كانت تمر بها كان يتوجب عليها دفع ضريبة لزيرو بگ كان هذا العقيد قد بسط في منطقة نفوذه بساط امير الامراء، وفي احدى المرات هاجم أورميه، وشاع عنه أنه قاتل لايرحم، وقيل أيضاً أنه القى القبض على عقيد في بالانوچ وقتله بطريقة وحشية، فخوفاً من كل الجرائم التي ارتكبها كان يفر جنباً الى جنب مع عشيرة بارزان. وقيل أنه يحمل معه كميات كبيرة من الاموال والذهب. هذا الرجل التقيناه فيما بعد في سجن ابو غريب، واظهر لنا انه رجل جبان، فقد كان يتوسل في السجن الى كل الجنود وضباط كي يعطفوا عليه، ويسمحوا له بابقاء باب غرفته مفتوحاً، وبعد سنتين وبحكم سلطة سيده الذي كان عضواً في مجلس النواب العراقي اطلق سراحه، وفي عهد عبدالكريم قاسم، وبعد عودة ملا مصطفى الى العراق، جمع هذا الرجل حوله مجموعة من الناس

ليخدم الجيش العراقي فقتل اثناء معركة ضد قوات ملا مصطفى.

لاشك ان البارزانيين لم يكونوا يريدون ان تكون لهم علاقة بهؤلاء الاشخاص، ولكن لم يكونوا يستطيعون ابعادهم عنهم.

علي اية حال فقد وصلت هذه المجموعة خلال الايام ٩-١٤ نيسان الى مضيق گادر النقطة الحدودية بين العراق وإيران.

بعد ان نقلنا صديقنا الجريح وسلمناه في الجهة الاخرى من الحدود واجهتنا مشكلة هامة وهي مصيرنا نحن، فقرب الحدود العراقية شعرنا بان مصيرنا سيختلف عن مصير البارزانيين، كان الشيخ احمد مصراً على العودة الى بارزان، وكان هذا مطلب عامة ابناء العشيرة.

وكان ملا مصطفى وما يقارب السبعمائة من مسلحيه وعدد من رؤساء العشيرة يقدر عددهم بمائة شخص، يواجهون احكاماً في العراق، وكانوا يريدون الوصول الى الاتحاد السوفييتي باي شكل لانه ملاذهم الآمن الوحيد. كان عددنا ثمانية اشخاص باستثناء (علي اصغر) الجريح، كما فارقنا نيكولا ورحل مع صديق آشوري. ونسيت هنا أن اذكر ان مجموعة من الآشوريين من اهالي أورميه ممن كانوا في الفرقة الديمقراطية في أورميه كانوا معنا علاوة على (سعيد) ذلك الشباب الذي ذكرته فيما سلف، وكان مستعداً للمجيء معنا الى الإتحاد السوفييتي. قررنا استغلال أولى فرصة سانحة للذهاب الى الإتحاد السوفييتي، هيأنا بعض الطعام وكان سعيد دليلاً جيداً واشترط علينا مطاولة البرد والجوع وتوقل القمم العالية وان نساير خطواته في ذلك دون أن نقترب من المدن و والاماكن المأهولة حتى نبلغ نهر آراس ونعبر من هناك.

قايضنا بعض بندقياتنا مع الكرد بمنّ من القمح عن كل بندقية، وهيأنا كمية من التمر. وفي الصباح عندما كنا منشغلين باعداد الطعام قالوا أن رجلاً جاء يسأل عن ضابط المدفعية - كان اسمي قد اصبح ضابط المدفعية - كان ملا مصطفى قد ارسل في طلبي، فتوجهت الى خيمته. استقبلني بحرارة، وامر باحضار الخبز واللبن لي (الخبز الحار ولبن الغنم الطازج!) قد تتعجبون عندما اتحدث عن الخبز واللبن هكذا - لكن هذين كانا يشكلان وجبة لايمكن لاحد الحصول عليها بهذه البساطة في تلك الظروف، فكانت افضل وجبة لنا في تلك الايام تتكون القمح الجاف، وقد تمكنا مرة واحدة من سرقة سخلة ولم نكن

نعرف كيف نذبحها، وكان زَرَبَخت يحمل خنجراً ذبحها به، وسلخ جلدها، وافرغنا ما في بطنها ثم وضعناها في قدر و...

قال ملا مصطفى مواسياً: سلطان تَفرشيان، الى اين تريد ان تذهب؟؟ لقد اخبرني سعيد بكل شيء. انتم لن تجدوا افضل من ملا مصطفى، ابقوا معنا، فاذا قتلنا بالرصاص فسأُقتل قبلكم. سنضع رؤوسنا معاً على صخرة واحدة ونربط مصائرنا ببعض: اذا متنا نموت معاً واذا حيينا نحيى معاً.

قلت: يبدو من قراركم انكم تريدون العودة الى العراق، فاذا كان كذلك فلن نستطيع ان نبقى معكم، فمع تسليم انفسنا الى العراق سيسلموننا الى إيران، وسيكون مصيرنا الموت رمياً بالرصاص على الحدود.

فقال ملا مصطفى: من قال لكم بان ملا مصطفى سيسلم نفسه للعراق؟؟ ملا مصطفى لن يسلم نفسه لأحد. ابقوا حتى نعرف ما يقرره الشيخ احمد. صحيح انه يريد العودة الى العراق، لكن اذا سلمت نفسي الى العراق فانهم سيشنقونني بعد (٢٤) ساعة في بغداد. فكيف استطيع الذهاب الى العراق؟ فابقوا معنا الآن ولاتقلقوا.

علي اية حال، غيّر ملا مصطفى قرارنا، فقد قمت بنقل كلامه الى اصدقائي، وقررنا البقاء معهم، وقد ذهب سعيد في مهمة كلفه بها ملا مصطفى الى العراق، فقررنا أن ننتظر عودته.

في تلك الايام بدأ حراس الحدود بالتردد على العشيرة، كان الشيخ احمد وملا مصطفى منهمكين بالتفاوض معهم، وكانت هناك قوة عراقية متمركزة قرب الحدود، وبدأ المسؤولون العراقيون بالاتصال بنا لاعتقادهم ان لنا دوراً في المعارك التي انتصر فيها البارزانيون وفي حال اقناعنا بالابتعاد عن البارزانيين فان خطر البارزانيين سيقل.

كانوا في مباحثاتهم معنا يركزون على القول: إنّكم تستطيعون اللجوء الى العراق، وسيعاملونكم حسب القوانين الدولية الخاصة باللاجئين السياسيين، وقالوا لنا ايضاً إنّ العراق اتفق مع إيران على تبادل المجرمين العاديين. مما لاشك فيه اننا لم نكن قد قررنا اللجوء الى العراق، ومع ذلك لم نرد عليهم بـ« لا » فلم نكن نريد قطع علاقتنا معهم.

وخلال تلك الايام التقينا الشيخ احمد وتباحثنا معه، وكان يقول:

لم أر طوال حياتي رجالاً ذوي اخلاق عالية أو مثلكم في الشجاعة، وكم كنت اتمنى أن تعود الظروف الطبيعية الى بارزان كي استضيفكم ولكن مع الاسف اننا نمر بهذه الظروف التي غلّت ايدينا، فلا يوجد لدينا الآن ما نشكركم به، لقد سمعت انكم اردتم الذهاب الى الاتحاد السوفييتي لكنكم لم تتمكنوا من ذلك، وكما يبدو فانكم تريدون البقاء مع عشيرة بارزان، وانا ارى من مصلحتكم أن تسلموا أنفسكم الى العراق فليس لكم مكان في إيران ولا في تركيا، واملكم الوحيد في العراق ونحن ليس امامنا سبيل غير الاستسلام للعراق، وقد قررنا جميعاً الذهاب الى العراق عدا ملا مصطفى ومجموعة من رجالنا المسلحين فلن يسلموا انفسهم، ومن المقرر أن يعودوا الى العراق فيما بعد بالقوة، ويقوموا بنزع سلاح بعض مراكز عسكرية حتى يواجهوا بها الحكومة لاجبارها على اصدار عفو عام عنا فنعود الى بارزان.

كان هذا قرار البارزانيين، وكانوا يعتقدون ان وجودنا بينهم سيخلق عقبة امام تنفيذ مخططهم. كان شائعاً اننا شيوعيون ولنا علاقات مع موسكو، فاذا بقينا مع عشيرة بارزان، فانهم سيضطرون الى اضافة نقطة أخرى في تفاوضهم مع الحكومة تتعلق بنا نحن الشوعيين الستة. وبهذا الشكل كانت ستزداد مشكلة اخرى الى عداد المشاكل مع العراق عليها. كانوا يشعرون باننا لو بقينا معهم فان ذلك سيكلفهم غالياً في الاتفاق مع العراق وربما لن يتفق معهم ويشترط أولاً تسليمنا اليه. وكانوا يقولون لنا انكم لستم متهمين في العراق، واذا سلمتم انفسكم الى العراق فان حسابكم سيكون اخف وطأة، وبهذا الشكل وبفائق الاحترام والتقدير ابعدونا عنهم. وقال الشيخ احمد انكم تستطيعون البقاء مع ملا مصطفى ففي نيته أن «يتمرد» الليلة، لكن مصلحتكم هي في الذهاب الى العراق، وإن اردتم الالتحاق بملا مصطفى فسوف لن نمنعكم. فقررنا الالتحاق بملا مصطفى واستحسن هو قرارنا.

في تلك الليلة بدأ النساء والاطفال والشيوخ التحرك نحو العراق[١٢]،

(١٢) في يومي ١٧– ١٨ نيسان ١٩٤٧ دخل كُردستان العراق مع الشيخ احمد البارزاني ما يقارب (١٥٥٠) رجلاً و (١٦٨٨) امرأة و (١٣٢٩) طفلاً. انظر مقال د. فؤاد حمه =

ولكن ما يقارب السبعمائة مسلح انسحبوا الى الاراضي العراقية. وفي تلك الليلة ذبحوا ثوراً ووزعوا لحمه على «المتمردين» وقد حصلنا نحن ايضاً على حصة، وصنعوا من جلده احذية. تناولنا طعامنا عند قدمات مضيق وفي الليل توجهنا الى خيمة ملا مصطفى في الجبل. شعرت ثم بعدم ارتياحه لإلتحاقنا به، وكان محقاً، لاننا لم نكن الا مقاتلين لا نستطيع توفير قوتنا ومستلزماتنا المعاشية بل كنا عبئاً فقط، في وقت كان البارزانيون متمكنين في تلك المجالات، وبعبارة أخرى فإننا لم نكن نصلح لشيء. في تلك الليلة سألت ملا مصطفى اين ننام، فقال لي:

– حسناً، اذهبوا وجدوا لانفسكم مكاناً في احدى تلك الخيم.

هذا الحوار القصير اظهر باننا نفكر بطريقتين مختلفتين، في حين كنا ننتظر أن يوفر لنا المكان والقوت والحاجات الاخرى، كان هو لايريدنا ان نتوقع منه هذه الاشياء. فوق قمة الجبل لم يكن عند البارزانيين سوى ثلاث خيم وعندما كنا نقترب منها لم نكن نلقى الترحيب ولم نكن نحصل على مكان. في تلك الليلة نال مني البرد فاصبحت بالحمى، ولم يتمكن اصحابي الا من ايجاد مكان لي وبقوا هم في الخارج تحت رحمة البرد. إن المعاناة من البرد الشديد بين الثلوج على إرتفاع أربعة آلاف متر لاتوصف. وفي تلك الليلة نفقت ثلاثة بغال وكلب من البرد، وعندما استيقظت في الصباح شعرت أن حنجرتي دافئة فاذا بي ارى الثلج قد غطى رقبتي، لاني لم أتمكن إلا من إدخال رأسي في الخيمة اما بقية جسمي فكانت خارجها. في اليوم التالي اقتنعنا جميعاً بان ليس في طاقة احدنا تحمل هذه الظروف وقررنا جميعاً ان نسلم انفسنا، لاننا كنا نعلم بان اهميتنا حتى الامس كانت بسبب المدافع، والان لسنا سوى مسلحين عاديين واننا نضيّق المكان على الآخرين، وان عشرة من امثالنا ليس لهم طاقة فرد بارزاني واحد. ورغم ما كنا نشعر به من مخاوف فقد سلمنا انفسنا الى العراق في يوم ١٥ نيسان ١٩٤٧.

وقبل أن نودع البارزانيين، او لنقل قبل أن نودع كُردستان، سأروي لك قصة ام كُردية، قصة ذلك الشعور والاحساس اللذين لاتملكهما الا الام.

= خورشيد المنشور في مجلة ... العدد ٩٦.

خط حصار الجيش ++++ — تجمع الجيش

المدفعية — خط انسحاب البارزانيين

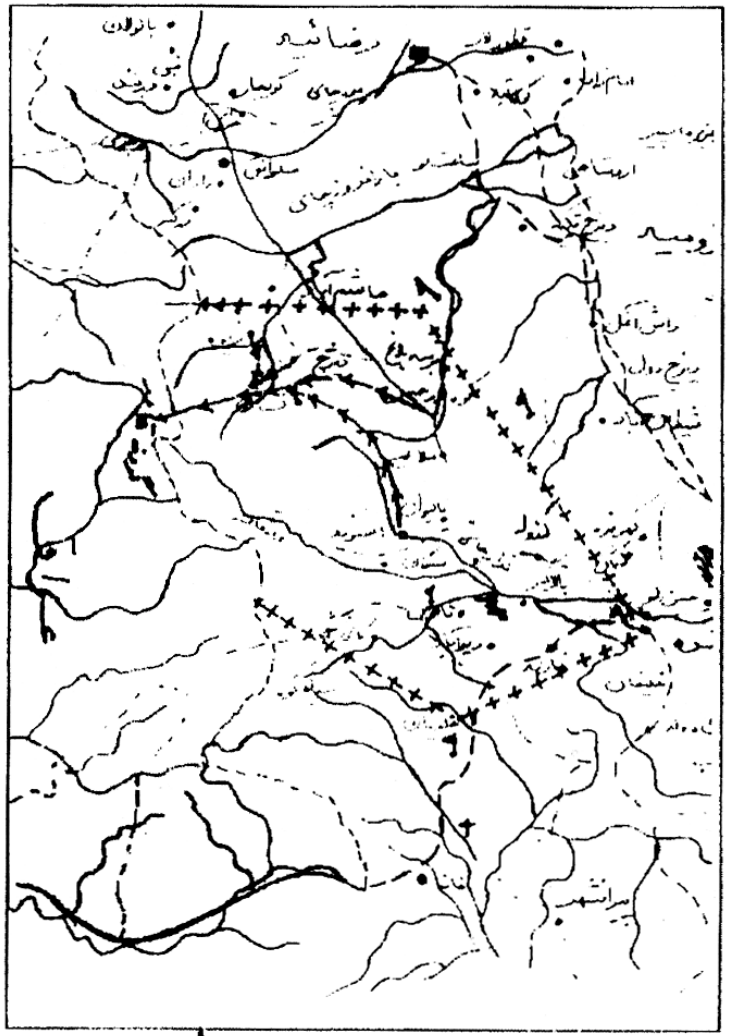

القسم الرابع

ولدي خيري

في شتاء عام ١٩٤٥ ارتبطت بعلاقة صداقة مع شاب اسمه (خيرالله)، ولان الجميع كانوا ينادونه بـ(خيري) فأنا أيضاً أذكره بهذا الاسم. كان أحد الضباط الكرد الذين تركوا الجيش العراقي والتحق بالبارزانيين، كان نقيباً في جيش حكومة كردستان الشعبية بقيادة القاضي محمد، تزوج في مهاباد من فتاة جميلة جداً، بعد هجوم الجيش الإيراني ترك صفوف البارزانيين.

كان عمره يتجاوز الأربعين، لكن نشاطه وخاصة عند امتطاء الخيل، كان يجلب اليه إهتمام الناس وكأنه شاب لم يتجاوز الخامسة والعشرين أو السادسة والعشرين، كان شجاعاً وجريئاً وذا معنويات عالية حتى عند سماعه الأخبار المحزنة، وكان دائماً ينظر الى نتائج الأمور بتفاؤل. كان أحد رجال العشيرة يمتلك مذياعاً يعمل بالبطاريات، وفي بعض الليالي لم نكن نتمكن من الإستماع الى الراديو، كان خيري ينقل لنا في الصباح التالي كل ما أذيع من أخبار وتحليلات سياسية فقد كان من الذين لايفوتهم أبداً الاستماع للراديو. فمثلاً عندما كانت اذاعة (موسكو) تعلن عبر إحدى المقالات «سنحطم الأعداء»، فإنه كان يحلل بأن الجيش الأحمر سيدخل من شمال إيران، وسيحطم الجيش الإيراني المحتل، ويبعث الحياة في جمهورية كردستان الشعبية.

كان ضابط إعاشة البارزانيين، وعند عودته من جولاته لتوفير الأرزاق كان يحمل معه مجموعة من الأخبار الخاصة به. العشيرة الفلانية أقسمت بالقرآن أن تساند البارزانيين، والعشيرة الفلانية تبرأت من ولائها لإيران ووعدت أن لاتساعد الجيش الإيراني أبداً. أو أن رئيس العشيرة الفلانية قد قتل في حكم رضا شاه فمن المستحيل أن تقدم عشيرته الدعم للجيش الإيراني والكثير من هذه الأخبار والبشائر.

بإختصار، فإن جميع الأخبار والبشائر التي ينقلها كان يبيّن أن أبناء شعب كردستان جميعاً مؤيدون للبارزانيين، وإذا ما استأنف الجيش الإيراني القتال فأنه سيندحر سريعاً. إنه لم يكن فقط شاباً متفائلاً بل كان يزيد من معنويات وتفاؤل الآخرين أيضاً.

كان الجميع في أشنويه يعرفون مدى الحب بينه وبين زوجته، في إحدى

المرات اصطحب معه الأخ الأصغر لزوجته الى الحمام، فكان يغسله وكأنه ابنه، وبهذا كان يريد أن يظهر بأنه ليس فقط رجلاً عسكرياً بل هو انسان ومرب ومتحضر. شن الجيش الإيراني هجومه وبعد أيام من المقاومة انسحب البارزانيون نحو حدود العراق، وعند الإنسحاب بقيت أمه مع شقيق زوجته في أشنويه، أما زوجته فقد رافقته.

إن مأساتنا بدأت بعد وصولنا الى حدود العراق. هناك بعد أن وصلنا الى المخيم وبدأنا بالسؤال عن الأصدقاء الذين نعرفهم، وجدنا النقيب خيري قد أصيب بالحمى راقداً في الفراش ويهذي أحياناً. ومن عادة الكرد عندما يصابون بدرجة أو أخرى بالحمى فإن صراخهم يشق عنان السماء فماذا عند ارتفاع الحمى أكثر.

وعندما لحظنا هز رأسه ليبدي رضاه، كنا نحن مجموعة من الضباط قد انسحبنا مع البارزانيين، طلب منا خيري الجلوس الى جانبه ثم قال لنا باللغة التركية وهو يئن:

- أرجو أن تقنعوا زوجتي بالعودة الى مهاباد، لأنني مريض وساضطر لتسليم نفسي الى العراق، ولانني محكوم بالاعدام من قبل الجيش العراقي. فلا أعرف ماذا يخبيء لي القدر، ووجود زوجتي يقيدني ويثبط عزيمتي علاوة على أنها شابة وجميلة.

كنا نرى زوجته وهي تحوم حوله كالفراشة وتقول له:

- لاتهتم ستشفى عاجلاً.

وعندما حدَّثنا خيري عن إقناعها بالعودة الى مهاباد، قالت:

- لاتتعب نفسك، فقد حاولت معي قبل ذلك، ولن تؤثر علي محاولات هؤلاء أيضاً. فلن أتركك وأنت في هذه الحال، فمهما كانت الظروف فأنا زوجتك وأينما ذهبت فسآتي معك. وسأشاركك في كل ما يصيبك، وما دمت حياً فسأكون بجوارك وإذا مت...

عندها أدارت وجهها.

كنا نعرف أن كلامنا سوف لن يؤثر عليها فقلنا لها:

- لأنك امرأة شابة وجميلة، وزوجة رجل محكوم، فهناك خوف عليك في العراق، ومن المحتمل أن تتعرضي الى الاهانة والإعتداء. عندها ستزداد

هموم وآلام زوجك، فإذا كنت تحبين زوجك يجب أن تعودي الى مهاباد، عندها سيكون هناك إحتمالان لا ثالث لهما أما أن ينجو زوجك ويعود أو أن يعدم، عندها لن يكون بين وجودك في مهاباد أو في بغداد أي فرق.

لم نعرف مدى تأثير كلامنا عليها، على أي حال عندما التقينا في العراق لم تكن زوجته معه، ولكي لانثير أحزانه وآلامه لم نسأله عنها، ولكن كان يبدو أنها عادت من الحدود الى مهاباد.

عند دخولنا العراق التقينا خيري عدة مرات، كان لقاؤنا معه في إحدى المرات في منطقة تدعى (باپشتيان) في مركز للشرطة العراقية، والتقيناه مرة أخرى، وكان مايزال مريضاً، وبحكم علاقاته السابقة مع الضباط العراقيين كانوا يوفرون له الأدوية والعلاج، وفي اليوم التالي عندما وصلنا الى منطقة تدعى (ديانا) وفروا له دابة وحملوه عليها وكنا نحن نسير على الأقدام.

بدأت الأحداث عند وصولنا الى ديانا التي كانت أول نقطة بعد الحدود تصلها السيارات. نقلونا نحن الأسرى بسيارتي حمل وكانت سيارتان مدرعتان تحمياننا. بعد أن ابتعدنا عدة كيلومترات عن ديانا شاهدت على الجهة اليسرى من الشارع إمرأة تسرع نحونا الخطى وتصرخ، وعندما اقتربت منا سمعتها تقول:

- ولدي خيري! ولدي خيري!

كانت تهرول فزعة وشعرها مرسل، والقماشة التي تتمنطق بها[١٣] كانت تتدلى على الأرض وكانت تسحبها خلفها.

كان شعرها الرمادي كزغب صغار العصافير منتصباً، كانت ممشوقة القوام، وكان أثر أشعة الشمس واضحاً على وجهها لم يكن يبدو من سيماها سوى عينين محمرّتين، ودون أن ترى خيري كانت تصرخ وهي تنظر الينا نحن والشرطة والسيارات، وتقول:

- ولدي خيري! ولدي خيري!

بعد صعودها في مؤخرة السيارة، أخفى خيري رأسه وهمس قائلاً:

(١٣) وهذه عادة قديمة عند الكرد، النساء يتمنطقن بقطعة سوداء عند موت أحد الأحبة أو عند المصائب. المترجم الى الكردية.

- إنها أمي، قولوا لها بأني لست هنا.

لم نفهم ما قاله ولم يسمح لنا الحراس بالتحدث معه، توقفت السيارة ونزل منها عريفان، وأبعدوها عن السيارة ووضعوها على جانب الطريق، ومع تحرك السيارة وفي لمح البصر ألقت بنفسها على مقدمة السيارة، تكرر هذا المشهد عدة مرات بعدها نزل الحراس وسحبوها على الأرض عدة أمتار والقوا بها في جدول ماء قريب من الطريق، هذه المرة ابتعدت السيارات قبل أن تتمكن هي من النهوض.

لم يكن أحد يعرف كيف عرفت هذه المرأة أن ابنها في هذه السيارة. على كل فقد شاهدناها في مرحلة أخرى بهذه الحالة، فعند وصولنا الى معسكر لأحد أفواج الجيش وعند نزولنا من السيارة وجدنا أم خيري جاثمة على ركبتيها قرب خيمة الحراس. كيف وصلت قبلنا؟ لم يكن أحد يعرف هذا السر. إن الانسان كان يشعر بأنها بشعور الأمومة فقط كانت تشم رائحة ابنها وتعرف مكانه اينما كان، فكانت تصل الى ذلك المكان.

في تلك الليلة أخذونا الى قلعة ادّعوا بأنها مركز للشرطة. تمكنا بعد دفع مبلغ من المال والتوسط من إقناع الحرس بالسماح لأم خيري برؤية إبنها. في ذلك اللقاء القصير لم تنطق الأم بأية كلمة بل كانت تحدق في ابنها وتتأمله، وكأن كل أعضائها تحولت الى عيون تناجي ابنها وتتأمله، وكأن كل حب وحنان الأمومة تتدفق منها وتنصبّ على ابنها، وكأنها عاشقة التقت بمعشوقها. وكأنها بصمتها هذا كانت تتفوه بكل الكلمات، والكلمة الوحيدة التي كانت تقولها هي:

- ولدي خيري!...

لاشك أنّ خيري كان يحدثها ويحاول أن يطمئنها ويقنعها بالعودة الى البيت، لكنها وخلال الدقائق التي التقت ابنها كانت تحدق في ابنها فقط دون أن ترمش عيونها. في الغد ومع بشائر الصباح نقلنا الى كركوك، بقينا هناك حتى الغروب. ثم أخذنا الى محطة السكك الحديدية، ركبنا في مقطورة خاصة، تدهور وضع خيري الصحي كثيراً، وكان يئن ويقول:

- بالله عليكم أحضروا لي الطبيب.

كانت المقطورة التي ركبناها منعزلة عن البقية، وكانوا قد قيدونا كل أثنين

معاً، وبرغم تدهور حالة خيري الصحية فقد ربطوه الى الكرسي الذي كان يجلس عليه. بعد إنطلاق القطار بساعة واحدة، سمعنا صوتاً خلف باب المقطورة، بدا وكأن قطة تخربش الباب، هذا الصوت جلب انتباه الحراس. كان المفوض قائد الحرس شاباً متكبراً وكانت تصرفاته تنم عن أنه من أصحاب السوابق، وكان العريف يصفه بتلك الصفات، كان متباهياً جداً بمسؤوليته، وكان يريد عرض عضلاته في أية فرصة تسنح له، أمر العريف بأن يعرف مصدر الصوت.

عندما فتح باب المقطورة وجدنا أم خيري واقفة خلف الباب كان العريف يجيد التركية فطلبنا منه أن يخبر المفوض بأن يسمح لهذه الأم أن تجلس قرب ولدها، لكنه رد عليه بحسم وطلب منه أن يبعد المرأة عن الباب ويغلقه. لم يكن (خيري) يحب أن تراه أمه بهذا الشكل وهو مريض ومقيد، على كل حال فقد أغلق الباب، ظلت أم خيري خلف الباب حتى الصباح، حاول الحراس عدة مرات إبعادها بالقوة عن الباب لكنها لم تكن تستجيب ولم تكن تبدي أية مقاومة. كانت تلطم وجهها وتقول:

- ولدي خيري...

لا رجاء ولا توسل، ولا غضب، ولا رد...

كان خيري طوال الليل يئن وهو مقيد:

- أحضروا الطبيب في سبيل الله...

وكانت أمه بين فينة وأخرى تقول من خلف الباب: ولدي خيري...

في الغد نقلونا الى (مركز السراي) في بغداد، وبعد ترحيب مبدئي أدخلونا في غرفة قذرة جداً. وكانت أم خيري واقفة أمام باب السجن وتحدق في ابنها كالسابق، وتدمدم:

- ولدي خيري...

بعد فترة قصيرة أحضر شرطي صرة لخيري - كانت أمه بعثت به - كان فيها بعض الخبز وشيء من التمر.

تقرر بعد ثلاثة أيام نقلنا الى سجن (أبو غريب)، هذه المرة لم يكن خيري معنا لأنهم حولوه الى الجيش، ولم تكن أخباره تصلنا إلا عن طريق الصحف

التي علمنا بواسطتها أنه أحيل الى محكمة عسكرية.

بعد عدة أشهر، وصل (علي أصغر) الذي كان أحد رفاقنا، فأخبرنا بمصير خيري وأمه، كان (علي أصغر) جريحاً فسلمناه الى حرس الحدود العراقيين قبل أن نسلم أنفسنا لهم، وبعد معالجته أحالوه الى السجن العام، فحدثنا عن مصير خيري وأمه قائلاً:

أشتهر خيري بامه، لانها كانت تأتي الى المكان الذي كان ابنها موجوداً فيه دون أن تسأل أحداً عنه وكأنها تشم رائحته عن بعد، فعندما كان خيرالله محتجزاً في إحدى المواقع العسكرية كانت أمه ساكنة قربه في الموقع. وعندما كانوا يأخذونه الى المحكمة كانت تتبعه وتعود معه. كان الضباط والقضاة يعرفونها فيطمئنونها بأن سيطلق ابنها قريباً، كانت تطلب منهم أن يعيدوا لها ابنها لتأخذه معها الى البيت.

بعدها حكم على خيرالله بالإعدام[١٤] وأعلنت الصحف أنه اعدم في السجن العام ببغداد، لكن أمه لم تنفك تطالب به.

في فجر اليوم الذي تم تنفيذ حكم الإعدام، صلى خيري ركعتين، وأظهر استعداده لمواجهة المشنقة، وقال وهو أمام المشنقة:

- أنا شاب كردي، ومن دواعي الفخر أن أموت من أجل إستقلال كردستان.

ويوصي في لحظاته الأخيرة بأن يسلم جثمانه لأمه.

وفي نفس اليوم يخبرون أمه بأن ابنها قد أعدم، لكنها تقول لهم:

- أعيدوا اليّ ولدي لآخذه الى البيت.

ويسلمونها أبنها ولكنه كان جسداً بلا روح.

ويقوم بعض الكرد بمعاونتها ويستأجرون سيارة لنقل جثمان الشهيد الى أربيل. ويقولون أنها جلست في مؤخرة السيارة قرب ابنها ودون أن تبكي تضع رأسها على الجثمان وتقول:

(١٤) تم إعدام الشهيد خيرالله عبدالكريم في صبيحة ١٩ حزيران ١٩٤٧ مع ثلاثة من رفاقه الضباط وهم: عزت عبدالعزيز، مصطفى خوشناو، محمد محمود قدسي. أعدموا في السجن المركزي ببغداد.

- ولدي خيري، لاتحزن فبمجرد وصولنا الى البيت ستشفى.

كان (علي أصغر) قد سمع من أصدقائه الكرد في السجن أن أقرباء خيري اجتمعوا في أربيل، وبعد تشييع جماهيري كبير ووري جثمان الشهيد الثرى، وعند عودتهم لم يجدوا لأم خيري أثراً. وفي اليوم التالي يجدونها قد توفيت بجانب قبر ابنها.

القسم الخامس

العراق

عندما قررنا تسليم أنفسنا للعراق ودعنا ملا مصطفى، وكانت المرة الأخيرة التي أراه فيها. كان الإرتياح بادياً عليه لقرارنا بتسليم أنفسنا وكأنه يشعر بأن مسؤولية كبيرة ستزول عن كاهله.

أبلغنا حرس الحدود العراقيين عن إستعدادنا لتسليم أنفسنا شرط أن يمنحونا حق اللجوء السياسي، فأطلعونا على برقية موقعة من قبل صالح جبر – رئيس الوزراء العراقي آنذاك، جاء فيها أنّ الحكومة العراقية ستتعامل بموجب القوانين الدولية الخاصة باللاجئين السياسيين مع الضباط الإيرانيين الذين يسلمون أنفسهم لها.

وقبل ذلك، كنا قد سلمنا بندقياتنا الى البارزانيين. واجتزنا الحدود تنتابنا مشاعر الخوف والأمل ممزوجة ببعضها. ثم توجهنا الى إحدى الخيم التابعة لحرس الحدود العراقيين.

في البداية عاملنا حرس الحدود معاملة ودية. وفي أول نقطة للقوات العراقية عرّفونا بقائد قوات الشرطة وكان يدعى العميد حجازي. وهذا الرجل قاد فيما بعد إنقلاباً عسكرياً فاشلاً ضد عبدالاله فأعدم. حدثنا العميد حجازي باللهجة التركية الأستنبولية قائلاً:

– لا داعي لأن ييشعر بالقلق الضباط الرسميون لأننا لن نسلمهم أبداً وسنتعامل معهم بموجب القانون الدولي.

رافقنا الشرطة حتى وصولنا الى ذلك الموقع، وبعد عدة ساعات من الإستراحة سلمونا الى مسلحين من أبناء تلك المنطقة، كان تعاملهم معنا خشناً على أساس أننا متمردون على الدولة الى أن وصلنا قصبة (ديانا) حيث سلمونا الى الجيش.

بعدها نقلونا الى كركوك، وهناك قيدونا إعتراضنا ووضعوا القيود في أيدينا. كانت مهمة نقلنا الى بغداد موكلة الى مفوض شاب، كان هذا المفوض متباهياً جداً بمسؤوليته، ورداً على إعتراضاتنا كان يقول:

– القيود رمز لسمعة الحكومة العراقية، لقد مثل وزراء رشيد عالي كلهم أمام المشنقة وفي أيديهم هذه القيود، يجب أن تفخروا بها. لانكم نلتم – هذا الشرف.

أخذونا من كركوك بالقطار الى مركز السراي في بغداد، كان المركز يضم ثلاثة عنابر، يعج كل عنبر بالناس الأشرار من القتلة واللصوص والمهربين واللواطين، وغيرهم من هذه الأمثلة المنحطة إجتماعياً. وكان كل عنبر يضم على أكثر من خمسين أو ستين شخصاً من هذا الصنف. وكان هؤلاء يريدون أن يعرفوا أي نوع من المخلوقات نحن.

كانت هناك مجموعة من النساء المومسات في ساحة السجن يتبادلن مع المسؤولين عن السجن الفاظاً نابية، كانت احداهن من أهالي كرمانشاه، ولاننا نرتدي الملابس الكردية، توجهت الينا وسألتنا:

– في أي ملهى القوا القبض عليكم؟

كانت تعتقد أن كل من يعتقل يجب أن يكون قادماً من تلك الأماكن، ثم قالت:

– لماذا لم تأتوا اليّ كي لاتتورطوا؟

شتمها «جواد أرتَشيار» وهو أحد رفاقنا ومن أهالي كرمانشاه وزجرها لتلتزم حدود الأدب في كلامها معنا. فأجابت المرأة:

– لماذا تنزعج، فكل الرجال يأتون مثل هذه الأعمال، وأنت واحد منهم فلماذا تبريء ساحتك؟

على كل، قاموا بتفريغ عنبر لنا، وأخذوا السجناء الى عنبرين آخرين، وأدخلونا في العنبر الخالي. في هذا العنبر كانت هناك بعض المفرشات القذرة. كان هواء العنبر نتناً جداً وحسب تعبير أحد الرفاق كان علينا قطع الهواء بالسكين. وكان في أحد أركان العنبر صفيحتان للقذارات وفضلات السجناء فيها. هكذا بدأت ضيافة الحكومة العراقية لنا.

نتيجة المصاعب التي تعرضنا لها في السابق كنا نتصف بشيء من الجرأة، لأنه كما يبدو أن علة خصلة الجرأة هي المصاعب، لا أدري إن كانت جرأة المعتقلين هي السبب في تشدد المسؤولين أم أن العكس هو الصحيح.

وفي الأيام التي كنا في (مركز السراي) دخل السجن مجموعات من طلبة الجامعة تتألف من ٧ الى ٨ أشخاص مرتين أو ثلاث مرات، وفي تلك الفترة كانوا يقضون على المعارضين بتهمة الشيوعية، كما كان سائداً في كل أرجاء

العالم، وهي التهمة الموجهة الى هؤلاء الطلبة. في إحدى المرات احتج هؤلاء الطلبة على المعاملة السيئة التي يعاملون بها من قبل مسؤولي السجن، حتى وصل الأمر حد تبادل الضرب مع الحراس. وقد شاهدت كيف هاجمهم الحراس بكل قسوة وشراسة في وقت كان فيه طلاب الجامعة مكتوفي الأيدي، فضربوهم حتى تعبوا، ولكن كلما كان الحراس يزدادون قسوة كان الطلاب يزدادون جرأة وشجاعة، وعندما فكوا وثاق الطلبة هبّ أحدهم كالأسد وصفع أحد الحراس على خديه. لقد لاحظت شجاعة أهل العراق مرتين أو ثلاثاً في مركز السراي، ولكن بعد ذلك شاهدت أمثلة كثيرة من الشجاعة والمبادرة، وكيف أنهم يدافعون عن مبدئهم حتى الموت.

من الأمثلة على شراسة الشرطة العراقيين كانت سلسلة يقيد بها رجل ويد المعتقل، وأمام كل سجن كان هناك حداد يجب أن يراجعه السجين ليصنع له هذه القيود كما تؤخذ بصمات أصابعه، حتى علي أصغر الذي كان أحد رفاقنا والذي اعتقل مدة شهر لاتهامه بإجتياز الحدود، لم ينج من هذا الاجراء، في حين أنه هو الذي سلم نفسه للسلطات العراقية وكان جريحاً حين استسلامه.

فقد ذكر لنا علي أصغر أنه لما أخذ الى سجن العراق المركزي كان هناك ثلاثة آلاف سجين جميعهم مقيدون بهذه السلاسل، أما حجم ونوعية السلاسل فمختلفة حسب الجرم الذي ارتكبه السجين. كانت سلاسل بعضهم طويلة بحيث كانوا يلفون بها أعناقهم، أما السلاسل القصيرة فكان المعتقلون يربطون بوسطها خيطاً كي لايسحبوها خلفهم وكانت السلاسل الطويلة تقيد بها الأيدي أيضاً.

بعد عدة أيام وبعد إجراء تحقيقات بسيطة نقلونا من (مركز السراي) الى سجن (أبو غريب). وأبو غريب قرية قريبة الى بغداد كانت في السابق معسكراً وفي تلك الأحيان حولت الى سجن يدعى «السجن الملكي»، كان حراس هذا السجن من أفراد الحرس الملكي.

في البداية حشروا كل واحد منا في زنزانة إنفرادية وقدموا لكل منا بطانيتين عتيقتين، وأوصدوا علينا الأبواب. كانوا يخرجوننا يومياً لمدة نصف ساعة، بعد اعتراضنا كانوا يسمحون لنا بالخروج وزيارة بعضنا البعض والتمشي في ممرات السجن، وكانوا يغلقون الأبواب في الليل فقط كما

سمحوا لنا بطبخ الطعام بأنفسنا.

وكانوا يصرفون لكل واحد منا (٣٠٠ فلس) كبدل مصاريف. في البداية كانوا يحضرون لنا الطعام ولكن بسبب اعتراضنا حول نوعية الأكل، صرفوا لنا تلك المخصصات مقدماً، بعدها كان نحضر الطعام بأنفسنا.

بعد بضعة أشهر تحسنت أوضاعنا كثيراً، فقدموا لنا الأفرشة لكن تعامل الحراسي معنا لم يتغير فكانوا يغلقون الأبواب في الليل غير آبهين باعتراضاتنا.

إن تحسن أوضاعنا لم يكن بسبب أوامر الجهات العليا، فالمخصصات التي كانت تصرف لنا كانت السبب الأقوى في تحسن حالنا لأننا كنا نسد بما يتبقى من تلك المخصصات عيون العريف حسين وبقية الحراس، وبسبب ذلك كانت معاناتنا تقل تدريجياً.

كانت الرشوة قد أفسدت هياكل كل المؤسسات والدوائر التابعة للحكومة العراقية، فكل شيء كان يتم علاجه بالمال. وبعد ستة أشهر سمحوا لنا بكتابة الرسائل الى عائلاتنا. وكانت تصلنا الجرائد والمجلات والكتب وحتى منشورات الحزب. وكانت الرسائل والمطبوعات التي تردنا من إيران تصلنا قبل أخذها الى مؤسسة الإعلام، وكنا ننقحها ثم نسلمها الى العريف حسين ليأخذها الى مؤسسة الاعلام فتنقح وتعاد الينا. جدير ذكره أن بعض الرسائل التي كنا لانخاف من محتوياتها، كنا نرسلها الى التنقيح، كانت مؤسسة الاعلام تحتجزها.

بعد الاتصال بعائلتي علمت أن زوجتي وأولادي قد غادروا أذربيجان الى الاتحاد السوفييتي. عندما تركت تبريز كانت زوجتي وطفلاي هناك بعدها تركوا تبريز مع بقية العائلات مهاجرين الى الاتحاد السوفييتي، وبعد مرور عام عرفت هذا الشيء، وعندما وصلتني صورة منهم تحرقت شوقاً اليهم، كانت حماتي – رحمها الله – جريئة جداً، فقد ألحت كثيراً على القنصلية السوفييتية في مشهد حتى وصلتها رسالة من ابنتها وتمكنت بعد ذلك من مراسلتها، وكانت ترسل الرسائل نفسها اليّ في العراق، بهذه الطريقة تمكنت من إرسال الرسائل مباشرة الى زوجتي.

بعدها تمكنا من الإتفاق مع رقيب مؤسسة الاعلام، ثم سمحوا لنا بزيارة مركز الشرطة في بغداد، وهناك كان المسؤول عن الإدارة عندما يشاهدنا يفتح لنا، جرار منضدته، وكان ثمن تسييره لكل عمل من أعمالنا ديناراً عراقياً واحداً.

بعد عام ونصف نقلونا مرة أخرى الى بغداد وسأقدم سرداً لتلك الأحداث فيما بعد. لأن موضوع الرشوة لم ينته بعد فاسمحوا لي أن أكمل لكم هذه الأحداث، في سامراء كنا بين الفينة والأخرى وبحجج مختلفة نزور الطبيب الإختصاصي أو المستشفى كانوا يأخذون أحدنا الى (مركز السراي) والى نفس الشخص، ودون أي سؤال أو جواب كنا نلقي بدينار في جرار منضدته، ثم نقدم طلباتنا:

- في المرة القادمة أطلب (زَرْبَخت) وهذا دينار عن طلبه. وأنا أريد أن أذهب للعلاج لعدة ايام الى المدينة، وهذا دينار. أرجو أن تعطوني الرسائل والكتب المحجوزة وهذا دينار آخر.

هكذا كانت تقبل طلباتنا.

كان عاما ١٩٤٦-١٩٤٧ قمة الثورات والإنتفاضات التحررية في البلدان شبه المستعمرة، وكانت قيادة الحركة التحررية في العراق بيد الأحزاب الديمقراطية وفي طليعتها الحزب الشيوعي العراقي بقيادة يوسف سلمان يوسف (فهد). وكانت لهذا الحزب مطبوعات علنية وسرية. (القاعدة) لسان الحال السري و(الأساس) لسان الحال العلني الذي يعبر عن وجهة نظر الحزب وكانت تصل الينا بمساعدة دهن واشر[١٥]. ولم يكن يمر يوم دون حدوث مظاهرات ومواجهات بين الجماهير والشرطة ضد التحالف الاستعماري القائم بين العراق والإنكليز. الى أن سافر نوري السعيد ممثلاً عن الحكومة العراقية الى بريطانيا لتوقيع معاهدة جديدة بين العراق وبريطانيا في ميناء (پورت سموث)، وقد عرفت المعاهدة بهذا الاسم. وقد اعتبرت الجماهير هذه المعاهدة أيضاً قيداً إستعمارياً آخر يقيد به العراق. لم تنته المظاهرات بل على العكس فقد صعدت الجماهير من المظاهرات حتى سقطت حكومة صالح جبر، وشكلت

(١٥) المقصود بدهن واشر هو الرشوة. المترجم الى الكردية.

حكومة جديدة برئاسة (مزاحم الپاچچي). كانت حركة التحرر تخطو الى الأمام، ولكن ضغط الجماهير ومظاهراتهم بقيت على حالها، وفي كل يوم كان يزج في السجن بأعداد أخرى.

في عام ١٩٤٨ واجهت السلطة الحاكمة في العراق مشكلة فلسطين وقيام دولة إسرائيل. إذ ارتفعت أصوات الإحتجاج في شبه الجزيرة العربية وعقدت المؤتمرات، وشكلت أفواج المتطوعين للذهاب الى فلسطين وقتال اليهود. كان طبيعياً جداً أن يكون المتحررون والأحزاب التقدمية في مقدمة المتطوعين لهذا النفير العشائري العربي المتعصب. أعلنت الأحكام العرفية في شتى أنحاء العراق، وبدأت مطاردة المتحررين ومعارضي الإمپريالية.

السلاح الوحيد للحكومة الاستعمارية ومرتزقة الاجنبي كان التعذيب والقتل. فألقي القبض على مسؤول تنظيمات الحزب الشيوعي كمال سيف المعروف باسمه الحركي (يوسف كامل) وتحت طائلة التعذيب الوحشي اضطر للكشف عن هيكل الحزب التنظيمي، وكان من بين هؤلاء يوسف سلمان (فهد).

إمتلأت سجون بغداد وأبو غريب بالمعتقلين، واستشهد الكثيرون نتيجة التعذيب، مثل: يوسف سلمان (فهد) وزكي بسيم وناجي شميل وحسين الشبيبي وهم من قادة الحزب وقد صدر بحق هؤلاء الحكم بالاعدام، وأرسل الباقون الى معتقل (نكرة السلمان) وهو من المعتقلات الرهيبة في العراق ويقع في أقصى الصحراء العربية في غرب البلاد.

في سجن أبو غريب سنحت لنا فرصة العمل بحرية أكبر. كان المعتقلون الذين يصلون الى هناك يعانون من الجوع والعطش، وعلاوة على ذلك كانوا في مرحلة التحقيق وكانوا يريدون أن يعرفوا مصير رفاقهم لكي يحددوا أقوالهم لإيجاد طريقة للنجاة من التحقيق. كانوا بحاجة الى مساعدتنا، وكان علينا الإستجابة لهم لأننا كنا نعاني نفس ما يعانون وبسبب سجننا كان لنا خبرة في هذا المجال.

كان علينا توفير وجبة طعام على الأقل للمعتقلين وكان عددهم يزيد على المائة، لذلك فقد شعر المسؤولون عن السجن بزيادة كمية الطعام التي نستهلكها، مما جعلهم يراقبوننا بشدة، ليقبضوا على أحد رفاقنا متلبساً

(بالجرم). ولم يتمكنوا رغم ذلك من إثبات (الجرم) لكنهم أبعدونا فوراً الى سامراء. وكنا قد أوصلنا طريقة الخلاص من التحقيق الى أحد المعتقلين وعندما وصلته الرسالة وقرأها بلعها فوراً لذلك لم يتمكن مسؤولو السجن من إثبات تلك الجريمة على صديقنا.

في الفترة التي كنا في سجن «ابو غريب» كنا نقدم الشكاوى الى مسؤولي السجن، ونطالبهم إما بتوفير السكن في العراق أو إعطائنا فرصة للخروج من العراق لأننا سلمنا أنفسنا على أساس أننا لاجئون سياسيون لذلك لايحق لهم إحتجازنا في السجون.

وذات مر اجتمعوا بنا وتقرر في تلك الجلسة تحديد ثلاث دول كي نلجأ اليها، والطلب من حكومة العراق الاتصال بسفاراتها في تلك الدول لتسهيل أمر قبولنا، لكنهم لم يعلمونا بجواب تلك الدول. عند تطور الإنتفاضة أردنا الاتصال بالصحافة الحرة لإيصال صوتنا الى الشعب العراقي ونطلب منهم المساعدة، تمكنا الاتصال بجريدة «الأساس» لسان الحال شبه العلني للشباب الديمقراطيين، كانت حلقة الوصل بيننا وبينهم مجموعة من الجنود المكلفين وكانوا يستمعون الينا وأحياناً نعطيهم شيئاً من المال، وقد نشرت جريدة «العصفور» البديل العلني لجريدة «الأساس» رسالتنا، بعد طبع تلك الرسالة أتصلوا بنا.

أستأجروا لنا بيتاً في سامراء وسموه سجناً وكان عدد من الشرطة يحرسوننا. كان عددنا عشرة، والتحق بنا رفيقنا الجريح بعد شفائه وقضائه شهراً في السجن، وبقينا في سامراء عاماً ونصف العام تقريباً، ولكننا لم نتوان عن المحاولة لتوضيح ومعرفة مستقبلنا، وكنا نحاول أن تحدد الحكومة العراقية مستقبلنا بأسرع وقت، وأضربنا عن الطعام مرة مطالبين بإطلاق سراحنا، وكنا نقول لهم نحن لاجئون سياسيون ولايحق لكم إعتقالنا، فإما أن تحددوا لنا مكاناً نسكن فيه أو أعطونا فرصة نغادر فيها العراق.

تزامن إضرابنا مع إغتيال الملك في شباط ١٩٤٩ وكان توقيتاً سيئاً، لذلك استمعنا الى نصيحة مسؤول السجن وأنهينا اضرابنا عن الطعام.

استمر اضرابنا عن الطعام ثلاثة أيام، وأنهينا اضرابنا بعد وعود قطعوها لنا، لكننا لم نجن من تلك الوعود شيئاً، وقرروا إخلاء سبيل علي أصغر لأنه

قدم للمحاكمة وحكم عليه بالسجن مدة شهر وقد أنهى مدة محكوميته، لكن مسؤول السجن تصرف على العكس، وقال إنّ وضعكم متشابه فإما أن نخلي سبيل الجميع أو تبقوا جميعاً في السجن.

كان الإيرانيون الذين جاؤوا معنا الى العراق – عدا البارزانيين الذين كانوا عراقيين – يعيشون بحرية، فقد وفرت لهم أماكن للسكن. وكانت لهم رواتب شهرية، كنا نحن العشرة فقط معتقلين، ولم تكن ظروفنا متشابهة، فستة منا كانوا ضباطاً رسميين في الجيش والأربعة الباقون كانوا من ضباط جيش أذربيجان وكان هؤلاء يظنون أنهم لو سلموا الى إيران فانه سيشملهم قانون العفو العام في أذربيجان فكانوا يعزلون أنفسهم عنا ويطالبون بتسليمهم الى إيران، ودون شك لم نعترض نحن على قرارهم. بعد ذلك عزلت الحكومة العراقية أولئك الأربعة عنا وأرسلوا الى بغداد، ونقلونا نحن الستة الى بيت أوسع وأفضل.

بعد فترة أضربنا مرة أخرى عن الطعام وطالبنا بحرية أكثر، فقرروا إرسال ثلاثة منا كل يومي يرافقنا شرطي للتجوال في المدينة، لكن مدينة سامراء لم يكن فيها غير بعض الأماكن المقدسة، والأماكن الأثرية وبقايا قصر الخليفة العباسي (المعتصم بالله).

خلال العام والنصف الذي قضيناه في سامراء كان مسؤولو العراق وإيران يجرون مباحثات تمهد لمعاهدة حلف بغداد، وفي تلك الأثناء قام عبدالاله نائب رئيس الوزراء العراقي بزيارة الى إيران وبعد أخذ وردّ اتفق الجانبان أن تسلمنا الحكومة العراقية الى إيران مقابل إعادة ثلاثة من الضباط البارزانيين اللاجئين في إيران الى العراق. وحفاظاً على السمعة السياسية لم تقدم الحكومة الإيرانية على إعدامنا.

بعد هذه الأحداث أبلغونا بالإستعداد للعودة الى إيران، إعترضنا بشدة وحاولنا الدفاع عن أنفسنا، ولكن رئيس بلدية السامراء – الذي كان على علاقة جيدة معنا – كان يقول:

– لا فائدة من المقاومة.

ولايجاد حل لهذه المشكلة بدأنا بإجراء محادثات مع قائمقام سامراء، ومن جهة أخرى ساعدنا صاحب البيت الذي كنا نسكنه كثيراً، وكان رئيساً لإحدى

القبائل العربية وكان شهماً جداً معنا. وقد دعانا الى بيته عدة مرات وعن طريقه تعرفنا على الكثير من وجهاء سامراء وعلماء الدين هناك، وكنا نحضر الدروس، وخطب علماء الدين. وجاء بعريضة موقعة من قبله وعدد من وجهاء المنطقة وعلماء الدين (السنة) يبدون فيها إستعدادهم لدفع أي بدل تطلبه الحكومة العراقية للحيلولة دون تسليمنا الى إيران. وقد قام قائمقام سامراء بتسليم تلك العريضة لوزير الداخلية، لكن القرار كان نهائياً، وفي أواسط آذار ١٩٥٠ أرسلونا الى المركز التعليمي للشرطة في بغداد، وكان رفاقنا الأربعة هناك فأصبح عددنا عشرة مرة أخرى، وأخبرنا رفاقنا بأننا قررنا المقاومة في حال تسليمنا الى إيران، وكانوا متفقين معناً في الرأي، وجاء رئيس بلدية بغداد للقائنا وقال: لقد أصدرت الحكومة القرار ولن يجدي شيء. فأجبناه بالرفض.

وفي الغد جاء الرئيس العام لبلديات العراق، وأعاد على اسماعنا نفس الكلام، وأخبرنا بانه حسب المعاهدة التي أبرمت مع إيران فلن يتم إعدامنا، وكان يقول لنا باللغة التركية:

– لايوجد هناك اعدام.

كان يطمئننا ويطلب منا عدم المقاومة، وكان ردنا بالنفي ونتهم الحكومة العراقية بنقض العهد وإنتهاك القوانين الدولية.

أخيراً، وفي اليوم التالي، الذي كان يوم جمعة، وعطلة كلية الشرطة، قاموا بتفريقنا في البداية، بذريعة التفاوض، ثم هاجمونا وبعد ضرب مبرح قاموا بتقييدنا بالسلاسل، ونقلنا في سيارتي حمل الى خانقين. ودماؤنا تسيل، وكنت قد أصبت بنزيف من أثر القيود، فعندما اعتقلت بدأت بالصياح لانذار رفاقي، وحشا الحراس فمي بجزء من القيد حشروه في فمي الى أن انقطع صوتي، وعندما كنا في السيارة لم ينس المأمورون العراقيون أن يأخذوا حصتهم من ساعاتنا وأقلامنا ونقودنا فجردونا من كل شيء تقريباً. وعندها أدركنا أن أحداً منا لم ينج سالماً.

ولعلمنا المسبق بما سيؤول اليه أمرنا، أعددنا ثلاثمائة نسخة من بلاغ، نعرف فيه أنفسنا بالشعب العراقي، ونشرح التصرفات اللاانسانية المخالفة للأعراف والقوانين، والتي ارتكبتها الحكومة العراقية بحقنا.

ورغم كوننا مكبلين بالقيود أثناء نقلنا، فإننا على أية حال قمنا بإخراج نسخ البلاغ ونثرناها في شوارع بغداد وخانقين.

في خانقين، وبعد مرور ساعة على وصولنا الى سجنها، جاء القنصل الإيراني في خانقين وكان يدعى (اعتصام زاده) يرافقه قائمقام خانقين، ليلتقينا وسأل عن أحوالنا بلهفة، زاعماً أنه يفتخر بنا لكوننا من أبناء بلد واحد، وشبهنا بأسود محبوسة في قفص، ثم أبدى أسفه، لكوننا نتحدث بلهجة قاسية عن بلادنا، ثم قال لنا «إن الحياة والموت، مهما كانا، فهما في أرض الوطن خير من بلاد الغربة، وينبغي أن لاتخافوا من المستقبل، لكون الحكومة الإيرانية توعدتكم بالإعدام، فستقضون فترة في السجن ثم يتم إطلاق سراحكم»، ثم طلب منا راجياً تحسين هيئتنا ونحن نعود الى أرض الوطن...

وفي اليوم التالي ٢١ آذار ١٩٥٠، تمت اعادتنا من نقطة (خسروي) الحدودية، وتسليمنا الى حراس من الجيش، وهكذا وبعد بقائنا ثلاث سنوات وثلاثة أيام بالضبط في السجون العراقية عدنا الى إيران مجدداً.

إن قصة التحقيقات والمحاكمات العسكرية والحكم علينا، عاشها الكثير من مواطنينا بتفاصيلها عدا إختلاف واحد، وهو أننا لم نتعرض للضرب والتعذيب اللذين زادت حدتهما مؤخراً، لأنهم لم يكونوا يستجوبوننا في أمور سرية خفية يجب أن نقرّ بها، لاننا كنا قد انتفضنا وحملنا السلاح علناً وحاربنا رجال الحكومة قدر استطاعتنا.

ثم حكم عليّ بالإعدام؛ وعلى أربعة من رفاقي وهم (مرتضى زَربَخت، أصغر احساني، محمود تيواي، وجواد أرتشيار) بالسجن المؤبد؛ وعلى (علي نقي، ورئيس دانا) بالسجن عشر سنوات.

ثم تم تخفيف الحكم على كل منا درجة، فأصبح الحكم بالنسبة للأربعة المحكوم عليهم بالسجن المؤبد السجن (١٢) سنة؛ وأصبح الحكم على الرئيس دانا السجن (٦) سنوات؛ فأكملوا جميعاً مدة محكوميتهم في السجن. أما أنا فقد خفف عني الحكم الى السجن المؤبد، وبعد (١٦) سنة وبضعة أشهر، أطلق سراحي في آذار ١٩٦٣.

لم يبق عندي بعد ذلك كله سوى هذه الذكريات، وجسد شبه ميت، وأمل بالمستقبل، وبنت وحيدة في الإتحاد السوفييتي، فقد توفي أحد أولادي في بداية نزوحنا، وتوفيت زوجتي أثر إصابتها بسرطان الرئة بعد (١٦) سنة من ذلك وقبل خروجي من السجن بستة أشهر، رحمها الله.

وعندما خرجت من السجن حاولت جاهداً إعادة ابنتي الى إيران، فلم يسمحوا بذلك، بحجة كونها قد خرجت من إيران دون إرادتها إذ كانت حينها طفلة في الثانية من عمرها، ولم يكن لها سابقة في العمل السياسي، ومع ذلك لم يسمع أحد لما قلت.

أخيراً وفي سنة ١٩٧١، وبعد (٢٥) سنة من الفراق تمكنت من اللقاء بها في برلين الشرقية، كنت قد تركتها طفلة في الثانية ووجدتها امرأة في السابعة والعشرين، كنت أرى فيها صورة زوجتي ولكنها تكبرها بخمس سنوات، فعندما تركت والدتها كانت في الثانية والعشرين.

كانت ابنتي قد حرمت من الحنان الأبوي طوال حياتها، وكانت تريد أن تنعم بحنان الأب كطفلة صغيرة، كانت تجلس الى جواري حتى منتصف الليل وهي تريد في أن أقص عليها القصص، وكانت تقول:

- يجب أن تحدثني قصصاً تعوضني حرمان كل هذه السنوات.
- ليس عندي من القصص أكثر من ذكرياتي.

عندما فرغت من الحديث عن ذكرياتي، سألتني:

- الست نادماً يا أبي، كانت والدتي تمدحك كثيراً، وكانت تردد دوماً وا أسفي على...

فأجبتها الجواب التالي:

إن حياة الإنسان عبارة عن وعاء، وإن ما يحتويه هو مقياس الحقيقة، كثيرة هي الحيوات الهادئة لكنها طويلة ومملة، لاتترك من الآثار إلا قليلاً. ولكن المجد للرجال الأبطال الذين ملأوا وعاء حياتهم بالأحداث والمنجزات، وبنوا تاريخ شعبنا الحافل بالأحداث.